

فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية والبيعة التي

بنيت بها لسيدنا مار برصوم

نقص هنا خبر الاعجوبة التي صنعها القديس مار برصوم بكورة انطاكية : في سنة ١٤٦٢ يونانية صعد صبي من نبلاء الافرنج الى شجرة تين ، لان الاشجار في المدينة كانت كثيرة ، وكانت المدينة تبدو كالفردوس ، فحدث ان وقع وكسر حوضه فعالجه اطباء كثيرا ، لكنهم لم يستطيعوا ان يشفوه ، فتحول الى مقعد ، وقد تألم والداه جدا عليه لانه كان وحيدا لهما ، وخافا ان تنقرض سلالتهما من شجرة نسب النبلاء والملوك ، وقد انفقا عليه زهبا كثيرا ، وتعبا من كثرة التجول به على اطباء ، لكنهما لم ينتفعا شيئا في هذا ، وبعد حوادث جوسلين اشتهر الطوبائي مار برصوم باعتباره قديسا يصنع العجائب وسرى اسمه على افواه الناس ، وكانت ام الصبي تقضي كل وقتها بالصلاة والذور ، وتسال الطوبائي شفاء لابنها فحضر راهب من الدير يحمل ايقونه القديس كالعادة ، فادخلته الى البيت باحترام وتباركت من الايقونة ، وبعد يوم تراءى القديس للمرأة وهو يشبه الملك بمجد عظيم ، فسالت في حلمها . من هذا الملك ؟ فقال لها الجمع مار برصوم وسمعت الطوبائي يقول هذا اريد ان تبني لي بيعة ، وكذلك كان الراهب قد رأى القديس يقول له : قم امض لدار هنري الافرنجي ، وفي بسنتانه اقم لي بيعة ، وجعله يرى ثلاثة مذابح ، ثم عاد فرأى الرؤيا عدة مرات ، ثم هدده ، حينئذ خاف الراهب واعلم المطران باسيليوس رئيس الرها بما رأى وبما قيل له لانه كان في تلك الفترة في انطاكية ، فتشكك الاثنان ، لكن سرعان ما اتى والدا الصبي ، واعلنا بما رأت الام ، حينئذ اخذ الراهب المطران معه واخذوا ايقونة القديس ، ومضى الجميع الى بيت اولئك الافرنج ، ووقفوا يصلون فوق الصبي المريض ، ولما اكملوا الصلاة ، ورجعوا ، وبينما كان ابو المريض وامه يتضرعان

حوله ويطلبان له الشفاء ، نام ذلك المريض ، ثم بفته صرخ بصوت عظيم ، وقفز واقفا على رجليه فخاف ، وفزع الابوان وكل اهل البيت ، ونظروا فراوا يد الصبي منبسطة وكان واحد قد امسك بها ، فعلموا انه رأى رؤيا ، وعند ذلك سألوه فلم يجب لكن مضى وقت طويل ويده اليمين ممتدة ، وهو ينظر الى فوق ، وكان مبتهجا ، فقام ابواه بسرعة وهينا المصابيح واحرقا البخور ، واجتمع جمع كبير ، حينئذ اعلمهم الصبي قائلا : انه قد ظهر لي الطوبائي مار برصوم ، وكان يمسك بيده صليب عظيم من ذهب يبرق كالشمس ، وامتلا كل البيت نورا منه ، ومعهم جمع من الرهبان ، ثم امسك بيدي واقامني وقال لي قم لاتخف لاجل ايمان ابويك وتضرعهمسا ، هاقد اتيت ، فقلت له : كيف اقدر ان اقوم وهاانذا كسسيح؟ عند ذلك مس مكان الكسر فشفي ، وقمت .

وهذا صار فعلا ، ولايقدر احد ان يشكك ان ليس المسيح ربنا هو الذي حل بسيدنا مار برصوم ، كما قال : ان من يحفظ وصاياي يعمل الاعمال التي اعلمها ، ويعمل اعظم منها ، لان الرب قد حل بقدسيه ، وهو يجعلهم يفعلون مايشاء ، وحينئذ اخذه ابواه وهما ممتلئان فرحة ، ماشيا ، والجموع تتبعه ومضوا الى البيعة الكبيرة ومن هناك الى عند الملكة ، واجتمع عندهم نبلاء الافرنج وباقي الجموع من أرمن وسريان وفرننج ، واتوا الى المكان الذي صارت به الاعجوبة ، حيث دل الصبي على المكان الذي ظهر فيه القديس ، فسترت الملكة وجهها ، واخذت تبكي ، وصارت الجموع تتبارك بالتراب ، ثم اخذوا من هذا التراب بركة الى كل الاماكن ، ثم ابتدأوا ببنيان البيعة ، وصار الراهب صليبا وكيلا ، اما العجائب التي صارت اثناء بنائها فلا يمكن ان تذكر هنا ثم مضينا لتكريسها مع رهبسان الدير ، وكان هذا يوم الاحد ٩ كانون الاول سنة ١٤٦٨ يونانية ، وكان ذلك في ايام رنجر حاكم انطاكية وبلدوين ملك القدس وهمفري بطريركهم ، ومار اثنا سيوس بطريركنا ، وحضر تكريسها حاكم قيليقية طوروس والملكة وهنري وامراته ديما يزيل ، اعني اليمصابات ، وباقي نبلاء الافرنج وشعوب الأرمن

والسريان ، وعدد كبير من كهنتنا وشما مستنا ، وكهنة الأرمن والافرنج، اما اليونانيين المبغضين فقد احترقوا بجسدهم ، وبحمد الله في قدسيته ، الذي له المجد الى الابد امين .

ذكر المشاجرة التي نشبت بين اغناطيوس المفرانين وبين رعيته

خرج من امد البطريرك اثناسيوس وتوجه الى قلعة زياد ، وبهذا الزمان مات الاسقف الذي هناك ، وحينئذ مكث البطريرك في ذلك الموضوع ثلاث سنوات ، ورسم بها اسقفا تلميذه سرجيس ، الذي دعي ايوانيس وبعد مارسمه ارسله الى امد ليتفقدوها .

ولما كان البطريرك في قلعة زياد اتى اليه اغناطيوس المفرانين رئيس اساقفة تكريت والمشرق ، وكان مجيئه لهذا السبب : قضت شريعة المشاركة منذ زمن قديم مضى ان يرسم مطران تكريت - اي المفرانين - مطرانا لنينوى والموصل ، لكن ما ان يرتسم هذا وينتخب ويصير مطرانا لهذه الرعية الكبيرة يتوقف عن الخضوع للمفرانين كباقي رؤساء الكهنة في تلك الناحية ، لكن يصير معه بالمرتبة نفسها ، ولهذا السبب كانت تحدث دائما خصومات في ناحية المشرق ، ويوضح كتاب دانيسسوس التلمحري ان هذه العادة بدأت منذ عهد قرياقس البطريرك ، ولما ضعفت في هذا الزمان تكريت ، وازدادت رعية نينوى وقويت اراد هذا المفرانين ان يوحد رعية نينوى وتكريت ، وان لا يضع مطرانا لنينوى ، فوقع خلاف بين المفرانين وبين اهل تكريت ، ولذلك اتى اغناطيوس المفرانين الى اثناسيوس البطريرك في قلعة زياد ، لكنه وجد ان البطريرك لم يرض بهذا الاقتراح ، فتركه وانتقل الى ملطية ، ومن هناك ذهب الى دير سرجيسيه ولما صعد البطريرك من قلعة زياد الى دير مار برصوم ، اتى ايضا المفرانين وحاول ان يقنع البطريرك ان يصنع اتحسادا بين الموصل وتكريت ويصير المفرانين راعيا للثنتين ، وبقي المفرانين

جالسا في الدير كل الصيف دون ان يستقبله البطريرك ، وعند ذلك تركه في تشرين الثاني ومضى الى رعيته ، وبقي يكافح لانجاز هذا المشروع حتى حان الوقت المناسب ، واستطاع ان يحقق ما يريد كما سنوضح ذلك فيما بعد .

اما البطريرك فامضى في ديرنا - اي دير سيدنا مسار برصوم - بقية حياته .

تذويب اثناسيوس بطريركا

بقيت بيعتنا نحن المستقيمي المجد بدون رئيس عام مدة سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلال هذه الفترة تتم المراسلات لعقد مجمع وانتخاب بطريرك ، فقام من المطارنة المشايخ مطران كركر ، ومطران صمحا ، ومطران قلوذيه ، ومطران جيحان الذي انتقل الى ملطية، واجتمع هؤلاء الاربعة وحدهم ، وصنعوا قرعة كما قالوا ، وكتبوا اسماء ثلاثة كالعادة ، وفاز الربان يشوع الشماس ، فارسلوا اسقفين في طلبه ، فاما هو فخالفهم بالاسرار المقدسة ، فاثبتوا له ان اسمه كان بالقرعة ، وحينئذ مضى معهم الى دير المقرونة فالبسوه اسكيم الرهبنة ، واتاهم خبر ان المقريان وصل الى نواحي امد ، وان حاكمها يريد ان يجتمعوا في المدينة ، ولما وصلوا الى دير قانقرت رسمه مطران كركر قسيسا ، ثم صارت رسامته في امد يوم الاحد ٤ كانون الاول في عيد القديسة بربرة ، ووضع عليه يده ديونسيوس وكان معه من المطارنة والاساقفة اثني عشر وجمع غفير من الرهبان والقساوسة والشماسه ، ودعي مار اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وفي يوم رسامته اقام والي المدينة وليمة لكل المجتمعين ، وكان بينهم مؤيد الدين بن نيسان الرجل العربي ، ويعقوب الرجل المسيحي اخو اسحق الشماس الذي كان قد تحاصم قبل مدة مع اثناسيوس البطريرك وكان هو الان يصرف بكل سخاء على هذا المجمع ، وبعد ذلك بيوم امر البطريرك ان يخرج

مطران جيحان من ملطية ويمضي الى رعيته وان يخرج باسبيليوس من امد ، واعطاه قلعة جعبر لكي تبقى امد كرسيا للبطيريك كما كانت في الماضي ، ومن ههنا تسرب الشك الرديء الى بيعة الله فقام باسبيليوس ومطران جيحان وقالوا للبطيريك : انك لم تضيف بطيريكاً بانتخاب صادق بل بالحزن والالام ، وقالوا : ان مطران جرنجر غش ، لانه قال له بانه لن يخرج من ملطية ، ولاجل هذا كتب ثلاثة اوراق باسم واحد .

ولما انتشر هذا الخبر بين الناس تشككوا ، كذلك تشكك المطارنة الذين في بلاد غربي الفرات فاستعدوا ليقوموا بخبر غيره ، وكان آخرون يقولون لانه طرد باسبيليوس مطران جيحان كذب الانتخاب ، وكادوا يحرموه لاجل الشكوك التي زرعتها . امنا هـنو فتوجه الى ملطية ، وجمع القساوسة والشعب واطهر لهم الاوراق التي كتبها ومضى الى جيحان .

ثم خرج البطيريك من امد واتى دير مار بركيوم ورتبهم مطرانا للمطية ابن اخته تاودورس الذي دعي اغناطيوس .

وفي يوم احد العنصرة في تلك السنة في تشرين الاول سنة ١٤٥١ رسم للقدس راونوس الذي من دير القدس ، وكان ميلاده في ملطية وهو ايضا دعي اغناطيوس .

وفي سنة ١٤٥٢ اجتمع مطارنة المغرب مع البشائر اندراوس وابن السمنة والباقي في حصن منصور ، وهناك كتبوا صحيفة القوانين وارسلوها الى البطيريك قائلين : ان تحفظ هذه القوانين يقبلوك ، عند ذلك وعد ان يحفظها ، ثم اتوا اليه في دير مار بركيوم ووضعوا تواقيعهم برضاهم في المنشور وصار الصلح .

لما وصلت رسالة الحرمان التي صبت عليها مطران جيحان الى ملطية ، وقرئت على المنبر تقدم الربان يشوع الشمساس العنيف واخذها ووضعها على راسه ، فلما سمع البطيريك فرح لاتضاعه

وذكائه ، وفي ذلك الوقت كتب له صلوات الخليل ، ويقضي أمر ملطية حتى توفي يوحنا البطريرك ، وكانت وفاته في ايلول بسنة ١٤٤٨ في دير الدوائر ، وبه سجي جسده المقدس ، أما مطران جيحان الذي كان كتب كما قلنا من قبل فقد احتال بضم النافوس ، وكتب دستورا ثبته وختمه بختم البطريرك المتوفى . موضعنا انه بصفته البطريرك قد ثبت قبل موته ملطية لباسيلIOS مطران جيحان ، وحينئذ دخل اليها بحماية الحكام ، ورسم بها قسيسين وشمامسة ولم يكن للبيعة بطريرك ، ولما صار هذا المذكور باسيليوس مطران انا كانت معه مرعيث جيحان ايضا فصار جميع مسيحيين تبعته واكثر الاساقفة مدسبكك بسبب افعال هذا المطران

اما الذين لم يعرفوا كيف زوروا ختم البطريرك ، فكانوا يلومون البطريرك، اما الذين كانوا يدركون ويفهمون ماذا جرى ، كانوا يعذرون البطريرك المتوفى ، لكن اخرون كانوا يسعون فعل مطران جيحان قائلين انه ضئع تلك الباغرة الالهية ، ولاجل تثبيت اركان البيعة .

وفي سنة ١٤٤٣ توفي مار كيرئيل بطريرك مصر ، وارتسم مار اياونيس ، وجلس البطريرك مار اشناستوس قسيس افسس الى ملطية ، والتقى بمحمد الملك ، وجلس بالمدينة في بيعة مار ماماس واقام مراسيم الصلاة في البيعة الكبيرة ، وحينئذ طلب الى دير مار اهرن (دير البطم) واعطى الحق لمطران مياقبارقين ليديسر آمد ، ولمطران طرسوس لدير الطاكية .

وفي تلك السنة نزل ديونيسيوس القريان الى بغداد يتداوى من مرض المني ، وتوفي هناك، وقد حضر اهل تكريت جسده المقدس وسجن في بيعة تكريت .

وفي تلك السنة خنق العرب اسقف حمص وطردت الرعية اسقف عبيدين ، واما اسقف الجزيرة فاشتراه السلطان بالذهب ، وتخاصم

اهل دمشق ورعيتهما مع اسقفها ، ثم ذهبوا الى البطريرك فأصلح
بين الجميع .

وفي سنة ١٤٥٤ في تشرين الاول ارتسم مغريان لتكريت هو عازر
من دير سرجيسيه ، وكان أصله من قرية العبر ، وقد درس في ملطية
وارتسم في دير مار اهرن ، ودعي اغناطيوس ، وقد اشتهر هذا في
البيعة شهرة كبيرة .

وفي تلك السنة رجع اثناسيوس البطريرك الى ملطية ، وكان فيها
لما ملكها دولت بن غازي ، وحين زحف ضدها سلطان
مسعود ، وبعد هذا مضى اناس الى جوسلين الوالي وقالوا له : إن
هذا البطريرك صار بغير حق ، واما جوسلين فلان البطريرك لم يأت
اليه فقد أصدر أمرا ان لا يذكر اسمه في الكنادس في كل الأراضي التي
يحكمها قطعا ، وأحضر طيمثاوس مطران جرجر الى سميساط
وسأله كيف صارت القرعة في سميساط ، لكن مطران جرجر لم يقل
إن كان مطران جيحان صادقا ولم يبين ذلك هو أو غيره من الذين
تكلموا .

وخرج البطريرك من ملطية وذهب الى دير مار برصوم لما سمع أن
جوسلين قد نقل باسيلوس أي أبو الفرج بن السممنة الى
الرها ، ورسم لكيسوم أيليا الراهب المعلم الكفو في جبلة ، والذي
دعي أيونيس ، وهو مشهور في البيعة .

استيلاء الفرنجة على عسقلان من المصريين

في هذا الزمان اصدر الامير حاكم قيسارية الكبدوكية امرا بتخريب البيع.

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) كان بلدوين الافرنجي ملك القدس طفلا صغيرا ، وكانت امه تحكم بالوصاية عنه وكأنها الملكة ، فلما بلغ بلدوين سن الرشد اراد ان يملك فعلا تمردت امه وتحصنت في برج داود ، فتوسط اعيان الافرنج ، فأعطوا لابنها قياده الجيش وحكم جميع المدن بينما اعطوها القدس فقط .

عندئذ توجه الى عسقلان وكانت تحت حكم العرب المصريين ، واقام المنجنيقات وأحدث فجوه دخل منها اربعمائة من الداوية. فهاجمهم العرب وكانوا يفوقونهم بالعدد ، إذ كان عددهم عشرين الفا وقتلوه عن بكره أبيهم.

فيئس الملك وأراد أن يترك المدينة ، لكن شجعه من حوله ولم يتركوا العرب يسعدوا الفجوه ، وفي الصباح حمل الملك صليبيا ، وتوجه نحو المدينة صارخا من لم يتبعني لن يكون مسيحيا بعد الآن ، فهاجموا على المدينة وقتلوا خمسة عشر الفا من العرب ، وعند ذلك ركب ما تبقى من العرب السفن وانهمزموا الى مصر .

....(٣٩) قد صف المنجنيقات ونصب برجاً من الخشب وصفحته بالحديد ، ولم يتوقفوا كل النهار وقد هلك عليها شعب كثير ، وكان فيها أمير تركي ، لكن عنده وزير يدعى ابن نيسان ، وكان كل شيء بيديه حتى الأمير جمال الدين الشيخ الوديع كان يطيع ابن نيسان ، الذي كان يعطيه خبزا ليأكل ، قد استطاع هذا الوزير بدهائه وذكائه

ان يتغلب على الجيش الجزار الذي كان يحاصر المدينة ، وكان يشجع من بداخل المدينة بالكلام المعسول والمواعيد الخادعة والعطايا الكثيرة ليدافعوا عن السور ، ويستमितوا بمحاربة الأعداء وكان يضع من الداخل جنودا اقوياء يلقون بالقاتل والسهام على الجنود الذين كانوا يحاصرون المدينة.

واقام مقابل المنجنيقات الخارجية منجنيقات اعظم منها واقوى واضخم ، وقد ارسل ليلا ثلاث مرات دوريات تنقض على المحاصرين وتهرب ، اما الأبراج فكانوا يهدمونها بضررها بالحجارة الضخمة في الوقت الذي كان يدعم الاسوار من الداخل بسلاعمدة الرخامية الكبيرة والمدعومة بالكلس.

لكنه على الرغم من هذه المقاومة الشرسة ، كانت رسله تقابل كل واحد من الامراء في الخارج ، وكان يهدف من وراء هذه الاتصناعات السرية ان يوجب نار الغدأ بينهم ، ويعمل على انشقاقهم ، واخيرا استطاع ان يكسب واحدا منهم الى صفه وهو يعقوب ارسلان حاكم كبدوكية ، وكان خموقسرا ارسلان ، ولكن لما وصلت له الرسائل والرسائل من امد ، ورأي التعهدات وما يتبعها من قسم عظيم ، ثم الطاعة العمياء التي كانوا يقسمونها له ، ثقل على قسرا ارسلان ، واراد ان يخلص افسد من يديه ، لينتقم منه على الذي صنعه معه في ملطية ، فعندما دخل الى بلاده اخذ يسبي وينهب ، وترك قسرا ارسلان الامير وانتقل كسير القلب بعد ان تعذب خمسة اشهر ، وصرف نفقات كبيرة ، ولما وصل الى بلاده وقتلته دعاه يعقوب ارسلان للصلح ، فلم يرض وسبى كيزان وقورس وتسل بطريق ، واخذ قلعة شوموشكي بالحرب ، وسبى ميسانه الف نسمة ، وساقهم رجالا ونساء وبهائم ، وترك القرى خالية خربة واخذ في جملة من سبى البار اغناطيوس اسقف تل ارسيانوتس فأعادته من قماح الى ملطية ، كذلك اخذ ايضا مطران حصن زياد لكنهم تركوه بعد يومين

في سنة ١٤٧٦ يونانية صارت قلة بالحنطة في كل مكان ، وخاصة

في نواحي انطاكية وقيليقية ، وصار نصف الكيل من الحنطة يباع
بدينار ، وأخيرا فقدت الحنطة تماما.

وفي تلك السنة قتل جمال الدين الوزير الذي كان في الموصل ، وقد
ذكرنا أنفا أنه أرسل المفـريان الى ملك الكرج ، لكنه كان
فارسيا ، وكان قد أقامه أتابك زنكي مدبرا في الموصل ، وكان يعطيه
من كل دخوله ، وقد غذي جدا وعظم كثيرا.

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي تلك السنة ١٤٨١ يونانية (١١٧٠ م) كان أمير ملطية محمد ما يزال صبيا ولا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، فسقط في بؤره الفجور والجنس ، وتبع زانية ساحرة ، وكانت هذه تدفعه مستعملة كل شرورها ليضطهد أهل المدينة ، وجذبه الأتراك ، لذلك أخذ العظماء يتمللمون ويهدمون قائلين الى متى نحتمل مثل هذه الأمور .

أما هو فزاد على سوء تدابيره ، وحسب كل شيء وجدته في خزائن أبويه ملكا له ، فأخذه وأخذ معه تلك الزانية وأتباعه وخرج من المدينة ، وأما رؤساء العساكر والجنود وأهل المدينة فإنهم لما نظروا إلى ما قد انتهى اليه محمد الأمير الشقي، أسرعوا فأقاموا أخاه أبا القاسم رئيسا ، وقد اصطلحت المدينة على أيامه ، وبقي ذلك يتجول من بيت الى بيت ، أما آخرته فسوف نوضحها فيما بعد .

... (٤٠) الذهب الذي كانوا قد تعودوا أن يعطوه منذ زمن ، وقد سلموا رهائن لكي يضطروا أن يدفعوا في كل سنة الذهب ، ولما أخذ الرهائن رجع الى القدس وبقي اليونانيون في حالة من التعاسة ثم أتى الشتاء ليهلك العديد منهم ، وبعد صعوبة بالغة استطاع أن يرجع قليل منهم الى بلادهم .

إضطهاد مليح الأرمني للمسيحيين

ولما سمع في سنة ١٤٨١ ملك القدس أن مليحا الأرمني حاكم قليقية يضطهد المسيحيين بكل الوسائل ويلحق بهم الشرور في كل _____ كان ، _____ رج ملك القدس ضده ، وزحف نحوه فاحتفى ذاك بالترك الذين أتوا

لمعونته ، ونشبت حرب ، فالرب بمعونته أعان الملك وكسره ، وهرب الأتراك ، أما مليح فدخل الى قلعته ، ولما حل الملك على القلعة ، وبدأ يقاتل تضاميق مليح ، وندم وطلب الغفران ، ووعد أنه سيصير تحت طاعة الملك.

وفي تلك السنة مات عز الدولة حاكم قلعة اكل (٤١) ، وقام ابنه اسد الدين ، ونشبت بينه وبين عمه حاكم امد خصام ، وصارا يسببان الفلاحين والقرى ويبيعانهم للعبودية.

زلزل عذيفة

في يوم الاثنين في ٢٩ حزيران حدثت زلزله قوية ، وكانت الارض تهتز كما تهتز السفينة في البحر الهائج ، وانتشر الخوف والهلع والذعر بين الناس.

وقد حدث عندما كنا واقفين في هيكل دير مار حنازيا نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس أن سمعنا بغته صوت رعد قوي ، وسقطنا على وجوهنا أمام المائدة المقدسة وتشببنا بها ، ونحن نميل هنا وهناك وبعد مده طويلة أفقنا كمن يفيق من القبر، وتنبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من عيوننا لا سيما لما سمعنا وتحققنا أن ما حدث لم يكن في الدير فقط وإنما عم البلاد كلها ، وقد صارت فظائع عمت البلاد والقرى، وعندما علمنا ذلك أطلقنا الالسنه بالشكر والتسبيح لله تعالى الذي أشفق علينا نحن غير المستحقين.

في هذه الزلزلة سقطت مدينة حلب وصار بها خراب كالخراب الذي حل على سدوم وعمورة ، وقد نظرنا بأعيننا الظلم الفظيع الذي كان يحل فيها على الأسرى المسيحيين ، فقد كان فيها الرف ، وكانوا يأتون بهم يوم الأحد الى البيعة والحديد بأرجلهم وأعناقهم ، وكان صراخهم يتعالى ليشق عنان السماء ولا يستطيع

اللسان ان يتكلم عن الآلام التي كانوا يقاسسونها ، وإذا اردنا ان نروي عن ذلك فاننا نحتاج الى أوراق كثيرة ، وقد جسد كثيرون على الله عندما نظروا وسمعوا عما يحدث ، وقد تهدم في حلب سورها ودورها وانتن الفضاء وتلوثت المياه من الجثث ، وتشققت المدينة وصارت شقوق وسرايب سرايب ، وصارت كلها تلا واحدا خرابا ، ولم يصر بغيرها كل هذه الفظائع ، كذلك سقط سور انطاكية على شاطئ البحر وبيعه اليونانيين الكبيرة كلها سقطت، وبيعه مار بطرس الكبيرة سقطت مذبحةا وبعض البيوت وسقطت بعض البيع في عدة أماكن ، ومات نحو خمسين من الناس في انطاكية، أما جبلة فقد سقطت كلها ، وفي طرابلس سقط قسم كبير منها بما فيها البيعة الكبيرة ، وأحدثت الزلزلة اضرارا في باقي مدن ساحل البحر وفي دمشق وفي حمص وحماة ، وفي القرى ، لكن الشيء الذي صار في حلب لم يكن له شبيها قط ، ولم نسمع به في أي مكان .

وفاة أمير ملطية

وفي هذا الشهر كان عمر أمير ملطية خمس عشرة سنة فقط - هذا الذي ترك أخوه المدينة بطريقة مهينة ومذلة كما أشرنا من قبل - فأحضروا له ابنة قرا ارسلان حاكم قلعة زياد زوجة ، وبينما كانوا يحتفلون بالعرس ، خرج العريس يرقص على ظهر الخيل حسب عادة الاتراك ، لكن الحصان قفز عاليا فجاة ، فانقلب سرجه وطرح الأمير أرضا ومات للحال ، فانقلب العرس الى ماتم ، وفكر الناس أن يعيدوا أخاه الأكبر والذي كان قد طرد ، لكن الترك رفضوا ذلك ، كذلك اجتمع المسيحيون ورفضوا ذلك فاقاموا عند ذلك الأخ الأصغر رئيسا وكان اسمه فريدون وزوجوه امرأه أخيه بدون رضاها.

• • (٤٢) أما حاكمها فريزنز فقد قص شعره ، ولبس المسوح ، وجمع

الشعب وصعد الى القصير وطلب الغفران من بطيريركهم ، وتوسل إليه ليدخل المدينة لكنه رفض أن يدخل حتى يخرج البـطيريرك اليوناني ، فلما ذهبوا وجدوا ذاك مهشما بالزلزلة فحملوه وكان به بعد رمق من الحياة ، فأخرجوه من المدينة لكنه مات في الطريق، حينئذ دخل همفري إلى أنطاكية وبنى أسوارها وبيعها ، وكذلك بنى نور الدين حاكم حلب أسوارها ، وحاكم سميساط بنى أسوارها ، وكل واحد من الحكام الأتراك والأفرنج بنى أماكنه ، وقد أشفق الرب على شعبنا الموزع في كل المدن والذي لم يعد له ملك أو حاكم منه .

وفي حلب سقطت المدينة لكن بيعتنا حفظت ولم يسقط منها حجر واحد ، وهكذا أيضا بيعه مار برصوما ، وفي جبلة حفظت بيعتنا ، وفي أنطاكية حفظت بيعتنا الثلاث ، وهن بيعة والدة الرب ، وبيعة مار جرجس ، وبيعة مار برصوما، وفي طرابلس وفي اللاذقية ، وذلك حفاظا على شعبنا المستقيم المجد .

حملة نور الدين على الموصل

عندما وصل نور الدين الى محيط الموصل ونصب خيامه هناك ، كان فيها اولاد اخوته الخمسة، وكان القيم عليهم ومدبرهم خصي كانوا يسمونه فخر الدين عبد المسيح ، أصله أسير من انطاكية ، وكان يساعد المسيحيين سرا مثلما كان مردخاي يساعد أبناء شعبه ، وكان يبغضه العرب حسدا ، مثلما كان هامان يبغض مردخاي.

اما نور الدين فقد قال : لأجل هذا أتيت الى الموصل ، أما عبد المسيح فكان يسوس المدن بالحكمة والدهاء ، لكن عندما وجد أن العرب بأجمعهم يحبون نور الدين ويريدونه خرج اليه وأخذ عهدا منه أن لا يأخذ المدينة من ابن أخيه سيف الدين ، فوعده بذلك ، حينئذ دخل نور الدين وصعد الى القلعة ووضع بها شحنة يدبر أمورها ، وهو خصي اسمه سعد الدين ، ثم ترك المدينة والبلاد تحت إمرة ابن أخيه . أما الذهب والمقتنى الذي وجدته في خزائن أخيه فقد وزعه على جميع أبنائه ، كذلك وزع البلاد على الأخوة.

اما في بلاد ماردين وكل مكان توجد فيه قلعه فقد اتبعها به ، ووضع عليها واليا من قبله.

وأتقل نور الدين كثيرا على المسيحيين فزاد عليهم الخراج ، وسن قانونا منعهم بموجبه أن يربطوا أحزمه في وسطهم ، أو أن يسدلوا شعر رؤوسهم ليهزأ بهم العرب ، كذلك أمر أن يضع اليهود رقعه حمراء على اكتافهم لكي يعرفوا.

وفي هذا الزمان مضى عموري ملك القدس الى القسطنطينية ، وقابل ملك اليونانيين فأعطاه زهبا كثيرا ، وسلاحا ، ولما سمع نور الدين قفل راجعا بسرعة ومعه عاد عبد المسيح كي لا يبقى ويصير

عونا للمسيحيين ، ولما ارتحل ناحية حلب نشب صراع بين المسيحيين الموجودين في أثور وبين مسيحيي ما بين النهرين ، وقد حدث ذلك في شهر أيار سنة ١٤٨٣ يونانية .

وكما سلف وتكلمنا عن نور الدين ، لقد أسكره المجد والقوة والسلطان حتى بدأ يحسبه بعض العرب نبي ، وقد حاول نور الدين بشتى السبل أن يذل المسيحيين لكي يظهر أمام المسلمين أنه يحافظ على الشريعة ، ويسهر على تطبيقها ، وقد استطاع أن يملك بلاد اشور بالإضافة الى سورية ومصر ، فأسكره الغرور ، واعتقد أن باستطاعته أن يتسلط على كل المسكونة ، فحاول أن يمحي المسيحيين من الوجود ، فقام وكتب رسائل الى الخليفة ، وأرسل رسلا بهذا الشأن الى الخليفة في بغداد يردد القول الوارد في القرآن: أن النبي محمد قد تنبأ أن المسلمين سيملكون خمسمائة سنة لا يؤذون المسيحيين بها ، أما الآن وقد كملت هذه السنين فيجب أن يباد المسيحيون من كل البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين ، وكل من لا يعلن إسلامه يجب أن يقتل ، وقد كتب في إحدى رسائله الى الخليفة أنه مستعد أن يأتي اليه ، فارتاب الخليفة وعرف أن نور الدين يريد من كل ذلك أن يأتي اليه ليخلعه كما خلع خليفة مصر وجلس مكانه ، أضف الى ذلك فقد كان الخليفة يحتقره لأنه يسمى نفسه نبي. (٤٣)

في سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) في شهر آب توفي أتابك قطب الدين حاكم الموصل وكل أثور ، وحينئذ جمع أخوه نور الدين حاكم حلب عسكريا ونهض بسرعة ، وأخذ نصيبين بغير قتال ، ففرح فقهاء العرب لأنه كان يكرمهم جدا لأنه كان مؤمنا متدينا لا يشرب خمرًا ، ويؤدي كل فروض الصلوات ، وكان المسلمون يسمونه « نبيا » ، وقد أحسن الى العرب ، وغضب على المسيحيين ، وأمر أن يهدم كل بناء جديد في البيع والأديرة ، فهدموا أساسا عظيما كان قد بني في بيعة مار يعقوب الكبيرة في نصيبين التي كان يتسولاها النساطرة من زمان برصوما المهراطق ، ونهبوا أوانيتها ، وكان بها

الوف من الكتب ، وقد صنعوا الشيء نفسه في أماكن كثيرة ، وقد أقام فقيها يبغض المسيحيين من سلالة يدعى ابن عصرون ، ووكله أن يتجول ويهدم كل بنيان جديد يوجد في البيعة التي قد بنيت في أيام أبيه وأخيه ، لكن ذلك القاسي الذي أرسله كانوا يرشونه ، فكان يحلف على الموضع الجديد أنه بنيان عتيق ، وعندما كان لا يجد من يرشيه ويدفع له كان يهدم ويخرب ، الى أن سمع بهذا نور الدين فأقاله .

وبعد ذلك حل نور الدين على نصيبين ، ووصل الى جبل سنجان واحتله بغير حرب ثم حل على الموصل في كانون الاول سنة ١٤٨٢ يونانية .

وفاة الخليفة المستنجد

وفي تلك السنة توفي الخليفة المستنجد ، وخلفه ابنه المدعو المستضيء ، وقد أوقف الخليفة الجديد اضطهاد المسيحيين لأسباب سوف نوضحها فيما بعد .

قصة جر المياه الى دير القديس برصوما

كان المسلمون الترك والأكراد وشعوب من أهل السنة أخرى ، تجتمع وتأتي لتزور دير القديس مار برصوما ، في كل وقت ، خصوصا في عيده ، لأنه كان يتفقد كثيرين بنعمته ، وكان يبرئهم ، لذلك كان يتجمع الناس اليه من بعيد ، وكانوا يبقون شهرا ، لذلك كانوا يجلبون الماء على ظهور البغال ، لكن مطران ماردين الذي سكن الدير من قبل ، كان يعرف طريقا قصيرا لجلب الماء ، فكان يأتي به بسهولة ، لذلك أراد هذا المطران أن يصنع خزاننا بهذا الموضع المقدس ، ويجر الماء للدير بقنوات ، لكن الرهبان رفضوا وقالوا: لا يمكننا ونحن محاصرين بالأتراك من كل ناحيه أن نقوم بهذا العمل العظيم ، لكن في الحقيقة لم يصدقوا انه يمكن أن تمر أقنية عبر هذا الجبل الوعر المسالك والمليء بالصخور والأحجار ، وقد قالوا له: إن الأولين كانوا أحكم منا وأعرف بأضعاف ، ولم يقدرنا أن يصنعوا هذا ، فكيف نحن إذا؟ وبعد فتره دعيت أنا الحقير ميخائيل ، واقاموا راعيا للدير فدفعني الرب الموضح قوته بالضعفاء أكثر من الأقوياء أن أكتب للمطران ماريوحنا عن ذلك ، فأتى ببشاشة وزار المكان وقدر أنه يمكن أن يدخل الماء للدير ، حينئذ بدأنا العمل بحفر الأرض واستقدام اللوازم ، ثم أتى الشتاء فعاد المطران الى رعيته ، ليعود في نيسان .

وفي هذه الفترة بدأ الأخوة الرهبان والشيوخ والصبيان يصرخون

ويولولون بدافع الحسد قائلين: لقد خرب هذا الدير وضاعت
أمواله ، لكنني صمدت بمعونه سيدنا مار برصوم ، حتى دنا
الربيع ، وأتى المطران كما وعد ، حينئذ عوض الحسد الذي كنا
نلقاه من المحيطين بنا صار معونات ومديحا من المسيحيين
والمسلمين ، وعند ذلك تشجع الرهبان وابتدأوا برضاهم يعملون
بقوة سيدنا مار برصوم ، فكانوا يتسابقون ليكون كل واحد
أولا ، وخصوصا كانت تظهر علامات تشير أن القديس يريد أن يتم
هذا العمل ، وقد تراءى القديس لبعض الرهبان والمبتدئين الذين
كانوا ضد اكمال هذا العمل ، وهو يحمل عصا ويشير بها قائلا: الى
هنا أريد أن أتي بالماء ، وهذا ما صار فعلا لانهم بينما كانوا
يحفرون في الصخور ، وقعت صخره عظيمه جدا فوق رجل ، وكان
اسمه برصوم فبذل أن تسحقه عاد واقفا ، وهذه كلنا نظرناها
بعيوننا ولأسناها بأيدينا.

واعجوبه أخرى أيضا صارت عند انتهاء العمل ينبغي لي أن
اكتبها، عندما اقترب الماء من باب الدير ، وكان الصخر عاليا وقفنا
في حيره ، لكن ما لبث أن تراءى القديس لراهب غريب ، وقال
له: امض وقل للفعلة ولراعي الدير : في المكان الفلاني تجدون مسلكا
للماء ، فلما قال هذا لم يصدق أحد لأن كل الجبل كان في ذلك المكان
كله صخر صلب ، فأخذ الراهب وحده يحفر حيث دله
القديس ، فوجد الجبل مشقوقا نحو خمسمائه قدم ، فتعجب جميع
الناس ، ومجدوا الله ، وقال بعضهم: إن الثقب قديم ، لكن آخرون
قالوا: إن الرب شقّه من جديد ، فأما أنا أقول : إن كان في الأصل هو
مشقوق أو أنه انشق الآن بقوة الله الحالة بسيدنا مار برصوم
أوضحت لنا أنه هو صنع هذا الفعل وليس نحن ، أما أنا الشقي
الذي رويت باقي الأمور التي جمعتها في هذا الكتاب لأحد يظن بي
أنني كتبت شيئا غير صحيح بل قد تركت أشياء كثيرة لئلا تطول
الرواية ، فليعلم القارئ أنه في سنة ١٤٧٤ يونانية في ٢٤ آب كمل
هذا العمل .

تمت هذه القصة .

• • • • (٤٤) وبلادها ، وأخذ الدار التي لبيعتنا في ماردین
وأعطاهما للعرب ، فأضافوها الى مسجدهم ، وقد سبب هذا كآبة لنا
ولكل الشعب ، حينئذ أخذ بعض المكوفين يجذفون على القديسين
بدل أن يوبخوا أنفسهم •

إن الله سمح بذلك لأجل خطايانا ، وصار الشعب يعيرنا نحن
الكهنة ، ويتجاسر على القديسين ، بل من الواجب أن يقول
القديسون لنا : إن الشعوب تفتري على اسم الله لأجلكم .

وفي الحقيقة الويل للعبد الذي يحتقر اسم سيده من أجله ، وبعد
ذلك سقط ذلك الخصى عن حصانه وندم ، لكنه لم يستطع أن يرد
الدار لأنه خاف من العرب .

وفي السنة التي مات بها مطران سميرساط مات أيضا يوسف
الذي كان موضوعا بغير شريعة في تل أرسانيوس وانعتق منه
المؤمنون الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يشكون به كثيرا .

وفي هذه السنة ارتسم ابراهيم وكيل ديونسيوس ، وفي تلك السنة
حفرنا في دير ماربرصوما وبنينا مساكن للبطاركة ولراحة
القاصدين ، وفي تلك السنة تجددت بيعة ملطية الكبيرة المدعوه
الساعي ، وكانت قبتها قد تداعت على مر الزمن ، وشارفت على
الاسقوط ، وقد حاول المؤمنون أن يرمموها ، لكن الرعاة لم
يسمحوا لهم مدعين الخوف من الحكام ، لكن الصحيح كانوا
يخافون اذا بدأوا بالاصلاح أن لا يستطيعوا أن يكملوه لأسباب تعود
اليهم ، وليس للحكام كما يدعون ، لذلك أهملت الى الآن ، وقد
أخبر بعض المؤمنين بطيريك أنطياكية بدشقق بذيان
الكنيسة ، فأرسل اليها اسقف طرسوس وقسيسا من عنده وطلبنا
منه أن امضي معهما الى الكنيسة لأجل هذا الأمر ، ولما مضينا
وشاهدنا الجدران المتداعية أعطوني خمسين دينارا لأبدأ
العمل ، فأحضرت العمال حيث هدموا القبعة والبابين القبلي

والشمالي ، وابتدأوا بالبنيان ، لكن اقترح اثنان من مساعدي هما ابو الحسن الارشيد ياقون (٤٥) ، ورومانوس الوكيل المتكني كوجان بهدم البنيان كله ثم اعادة بنائه ، وهكذا كان ، فهدمت الكنيسة ، ثم اعيد بناؤها رويدا رويدا ، وقد اشتركت المدينة كلها ، فكانت التبرعات تأتي من الأرامل والمساكين بمقتنياتهم سرا الى رومانوس الوكيل .

وكان أول بناء لهذه الكنيسة عام ١٤٨٠ يونانية برعاية ماراغناطيوس المطران المدعو الساعي .

أما هذا التجديد فقد بدأ عام ١٤٨٣ يونانية وطال ستة سنوات وتكمل في سنة ١٤٨٨ وانفق عليه ألفي دينار .

وفي هذا الزمان سقط أناس من الأفرنج ، كانوا في تلك الأرض مشهورين بالرحمة على الفقراء والمحتاجين ، بتأثير الشياطين في الهرطقة فكانوا يقولون انه لا يمكن للخبز والخبز ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وانه لا فضيلة سوى الصدقات والرحمة على المحتاجين ومحبة الناس واتفاقهم مع بعضهم ، وقد تبعهم كثيرون حتى صاروا الوفا وربوات ، وصار لهم أساقفة وولاة ، واتحد معهم حكام البلاد ، ثم زادوا على ناموسهم نوع كرية من الدعارة اذ اشاعوا نساءهم للجميع ، وبذلك لم يعد للرجل امرأة واحدة ، ولا للمرأة رجل واحد ، ولما انتشر هذا النفاق قام بابا رومية فجمع مجمعا مسكونيا ، وأمر بايقافه وكانوا يسمون البابا افوسطوموس، وأما نحن فوضحنا بطرق متعددة ان لا مكان لنا في هذا المجمع ولانريد ان نمضي الى تلك الناحية ، وقد كتبنا صحيفة كبيرة ووضحنا بها كيف ومتى اوجد الشيطان مثل هذه الأمور .

الخليفة المستضيء بأمر الله

بعد ان توفي الخليفة المستنجد بالله ، خلفه ابنه المستضيء بالله وقتل هذا الخليفة الوزير لأنه لم يرض به مكان ابيه ، وكان هذا الوزير القتل يكره المسيحيين جدا ، ولذلك أخذ الخليفة الجديد يحب المسيحيين ربما ، بسبب حقه على الوزير ، فأخرج رؤساءهم المؤمنين اولاد توما من السجن ، وأعاد لهم بيوتهم وبيعتهم واعتبارهم ، فأعلموه كيف احتقر والده الخليفة السالف رسل نور الدين لأنه اكتشف حيلته ، وأنه أرسل له تأنيبا يعنفه فيه ويقول : لايجوز لك ان تسمى نفسك نبيا ، وتضع نواميس كالاله لأنك لم تفهم كلمة النبي محمد حول السنين ، وان الله لم يأمر ان تقتل الناس بغير ذنب ، وحينئذ خزي وكف عما كان يقوم به .

وبعد ان تولى الخليفة الجديد طلب نور الدين الأذن للقدوم ، وزيارة قبر الخليفة المتوفى ، فتيقن الخليفة الجديد ان نور الدين اختلق قضية المسيحيين ليأتي بحجتها الى بغداد ، ويملك ولذلك رد جوابه بتهديد شديد ، ومنعه من القدوم الى بغداد .

لذلك علينا ان نفهم ان الرب لم يتركنا من رحمته ، ولم يهملنا في اي زمن من الأزمان ، وهو دائما يحفظنا برحمته ، ويحفظ بيعته من كل مبغضينا

في سنة ١٤٨٢ يونانية سمع السلطان قليج ارسلان بالانشقاق الذي حدث في ملطية بعد ان توفي الأمير الصغير إثر وقوعه عن صهوة جواده ، فاستعد للتوجه اليها ، لكن الناس سارعوا الى قلعة زياد مستنجدين ، فاتى الخصي سعد الدين ، وهو رجل مدبر حكيم وشجاع ، فوحد كلمة العساكر وثبت خطبة ابنته سميرة على الأمير الصبي ، وصار الجميع كلمة واحدة ، فلما جاء السلطان لم يستطع ان يستولى على المدينة ، لكنه أخذ اثني عشر الفا من شعب البلد

ومضى ، وقد حث نور الدين كافة الأحرار ليذهبوا مع عساكره وعسكر الموصل وماردين وقلعة زياد وعسكر الأرمني وغيرهم كثيرون حيث تجمعوا عند اسماعيل في سبسطية .

لكن السلطان الذي بقيسارية كان يماطلهم ويعددهم بالغزو ، ثم يؤخر من وقت الى وقت حتى انقضى وقت الصيف ، ولما نظروا انه قد قرب الشتاء ، وعرفوا انه كان يخادعهم توجهوا الى الباب الرئيسي لقيسارية يريدون الخروج للغزو والسبي ، لكن السلطان لم يطاوعهم ولم يخرج معهم للحرب ، وحينئذ طلبوا منه ان يعطيهم مقتنياتهم وأموالهم التي كانوا قد غنموها في بلاد ملطية ، وكانوا في حالة من الغضب والهياج ، ثم اخذوا يجمعون اسلحتهم وثيابهم .

اما الشرنمة التي كانت مع صلاح الدين فقد وصلوا الى مصر ولبسوا السواد وبقوا في حالة من الحزن .

وفي هذه الأيام لما علم الوالي التركي المتسلط على قلعة الروم ان حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله عصى وتمرد والتجأ الى الأفرنج فوعده فرينز ان يدعمه ويساعده للبقاء في القلعة ، ولما جعل نفسه عبدا للأفرنج عاداه الأتراك ، وصاروا ضده ، لكن الأفرنج أخلفوا عهدهم وموآثيقهم معه ، وداسوا على اليمين الذي اقسموه له ، فأتوا من القدس ومن كل سواحل البحر : كونت طرابلس ، ورافان حاكم قيليقية ووالي فلظ ، ومضوا مع فرينز وكانوا جمعا كبيرا جدا ، وهاجموا حارم وحاصروها اربعة اشهر ، واخذوا يضايقون البر كله والمدينة ، وقد أوقعوا خسائر كبيرة ، وقتلوا عددا كبيرا من الخلق، لقد حلفوا بالصليب والانجيل كذبا ، وظنوا ان الغلبة تكون بقوة البشر ، ثم اخذوا يهاجمون القلعة كرا وفرا ، فضعف الترك الذين كانوا يدافعون عن القلعة وأرسلوا يستنجدون بحاكم حلب ، وأعطوه عهدا ان يسلموه القلعة ، اذا رد الفرنجة عنهم ، فأعطى حاكم حلب عشرين الف دينار الى فرينز حيث قفل راجعا الى انطاكية .

... (٤٦) وقد جمع البلاد التي أخذها من أخيه شاهنشاه والذي كان قد أخذها من ذي النون ، وكذلك أخذ أولاد أخيه الذين كانوا في السجن أما هو فأرجع شعب ملطية وأعطى لأخيه كل سنة عشرة آلاف دينار ، لكنه لم يعط مكانا لأحد قطعاً .

أما عن أخباره مع أولاد أخيه فقد كان معهم متوحشاً إلى أبعد الحدود ، فذبح واحداً منهم وشواه بالنار ، ووضع على طبق وأرسله لأبيه وأرسل معه خبزاً وأرفقه برسالة تقول : إن كنت تريد ثلاثة آخرين مثل هذا فأنا على استعداد أن أرسلهم فوراً لك ، فلما رأى الترك هذا المنظر هللعوا وارتاعوا وتصالحوا ، وعاد كل واحد إلى بلده لأنه كان قد دنا فصل الشتاء ، وكانت بلادهم خالية من العساكر .

ولما أذيع خبر موت نور الدين بين العرب والترك ثاروا على بعضهم ، ووقعت بينهم حروب شرسة أقتتلوا فيها كثيراً ، وسقط منهم الوف ، وقد خاف المسيحيون أن يفنوا بعضهم بعضاً ، وقد خلت القرى من الرجال والطرق من المارة في سورية وما بين النهرين وأشور .

وفي تشرين رجع الأمراء والعساكر من كبدوكية إلى بلادهم ، كذلك تعافى نور الدين من مرضه وظهر أمام الناس فعرفت الشعوب أنه حي ، فتبددوا وتفرقوا ، ثم اصطلحوا ، وخلال هذه المعارك التي صارت بين العرب والترك سبي من كيسوم نحو من ألف شخص ، وقد اشتراهم أهل ملطية وتاجروا بهم وربحوا أموالاً طائلة .

في سنة ١٤٨٤ يونانية قتل اسماعيل حاكم كبدوكية ، فالجوع الذي طال أمره في كل البلاد ، والشتاء الصعب الذي أتلف كل شيء ضايق الناس كثيراً ، فتجمهروا وطلبوا منه قوتاً بعد أن علموا أنه يختزن الحنطة ويمنعها عنهم ، ثم أعطاهم قليلاً وطردهم بل وأخذ يهزأ بهم ، وحين تضايقوا من الجوع حاولوا أن يقتلوه ويأخذوا

الحنطة ليقتاتوا بها مع اولادهم ، فتحالفوا مع بعضهم ، وهجموا عليه وقتلوه هو وامراته اخت السلطان مع خمسمائة ممن انسيبائه ، ورموهم على الثلج دون أن يدفنوهم ، ثم تسلطوا على كل الطعام الذي خزنه واكلوه ، اما اخبار مصرعه فلم تعلم حتى شهر شباط لأن الطرق كانت مقطوعة بسبب تراكم الثلوج ، واخيرا انتشر الخبر في كل مناطق حكمه ، لكن الثلج الكثيف شل حركة الناس ، فلم يستطع ان يتحرك اللصوص او قطاع الطرق ، إنما سرعان ما ندّم قاتلوه واتفقوا ان يقيموا مكانه احد انسيبائه ، فاتصلوا بعمه ذي النون ، الذي كان السلطان قد اطلق سراحه من قيسارية ، فسكن في دمشق ، والآن لما استدعي للسلطة اهتم به نور الدين ، اما ذي النون فقد اتى سيرا على الأقدام لأن الثلج كان قد غطى الطرقات ، وعندما وصل امام ديرنا خرج اهل الديروكسحوا الثلج امامه ورافقوه مسيرة خمسة ايام ، الى ان وصل سبسطية ، وعندما تملك هناك احضروا له القتلة فقتلهم ، لكن بعد هذا ظهر نورالدين بعد ان ظن الجميع أنه قد مات وخرج للاقصة السلطان ، وكذلك الأمير قلع ارسلان في كيسوم ، وهو خال السلطان ، ولما عرف ان السلطان مفتاظ منه ترك وعاد الى كيسوم من خوفه ، ومضى الى نور الدين ، ولما ملك ذو النون في كبدوكية زحف ضده السلطان ، وحينئذ جمع نور الدين ، وجاء فأخذ كيسوم وقلاعها ومرعش ، ودخل الى بلاد جيحان ، ثم ترك السلطان سبسطية وأسرع ليحارب نور الدين ، وقد نصب القائدان خيامهما وجها لوجه في بلاد جيحان ، لكنهما كانا خائفان لأنهما كانا متعادلين بالقوة تقريبا ، واخيرا انتشر الجوع في كلا المعسكرين ، وفني منهم عدد كبير ، ولهذا السبب توسط المصلحون فيما بينهما فوافقا على الصلح ، فرد نور الدين كيسوم وكل المواضع التي اخذها من السلطان ، وبالمقابل سمح السلطان ان يملك ذي النون على كبدوكية ، وأن يطيع نور الدين ، واصطلحا ، ورجع كل واحد إلى بلاده .

وأباد الثلج الذي انهمر بغزارة في هذا الزمان الناس والبهائم

والطيور ، وقد قرر الجميع ان هذه الضربة الثلجية التي اتت في شهر ايلول و تشرين و اتلفت الغلال ، كانت غضبا من الله لأنها اتت في غير اوانها ، وقد التجأ الناس الى التنجيم والضرب بالغال ليكتشفوا سر ماجرى ، فقد لف الظلام الجو ، وصار نور الشمس يظهر كنور القمر ، أما الثلج فكان يتساقط بغزارة عظيمة ، فامتلات الجبال والبقاع حتى ان الاقوياء من الشهاب كانوا يذهبون من قرية لقرية بصعوبة عظيمة ، بل ومن بيت الى بيت ، وهكذا امتلات الأسواق والمدن والقرى بالثلج ، وكان الناس داخل بيوتهم وكانهم في قبور ، وقد تجمدت الأنهار والعيون وكل الينابيع حتى ان الناس والبهائم والطيور كانوا يموتون من العطش كما يموتون من الجوع .

واي انسان يستطيع ان يصف الشدة التي حلت بهذا الزمان على كل مايعيش على الأرض من الحيوانات والطيور التي كانت تلتجىء الى البيوت ؟ أما الثيران والحمير والخيل فقد ماتت داخل زرائبها ، بينما نفقت الأغنام والماعز تحت الثلج ، وانتن الجومن رائحة الجثث ، وهذه الكارثة لم تقتصر على بلاد الشمال فقط بل صار هذا في الهند ايضا .

وقد بقي الثلج يتساقط أربعة عشر شهرا وحيث لم يكن معتادا ان يأتي قط ، أما القبائل العربية التي لم تتعود السكنى في البيوت فقد غمر الثلج خيامها فبادوا ولم يبق من ينقل الاخبار من قبيلة الى اخرى ، وقد بقي الثلج يطمر كل شيء حتى شهر نيسان وبصعوبة كبيرة جدا عرف الناس الذين كانوا يسلكون في الطرقات فطمرهم الثلج ، وبقوا كل هذه الفترة تحته، أما الملوك والرؤساء فقد التجأوا الى المنجمين الذين أخذوا يكذبون ويقولون ان هذه الشدة سوف تنتهي قريبا ولن تعود ، لأن الملوك هكذا يريدون ، ومثل هذا الكلام صدقه عدد كبير من الناس ولكن الله قد فضح كذبهم فصار في السنة التي بعدها ماكان قد صار نفسه ، وامتد من اذار الى نصف حزيران ، فاعترف حينئذ الطالبون الذين يقرأون في عدد الكواكب ان

- ٢١٨٣ -

كل ما يشاء الرب يصنع ، وقد كتبنا ذلك ليتعظ الناس ويعتصموا
بالايمان .

وفي هذا الزمان سبى العرب بيعة الأربعة شهيدا في
ماردين ، وقد سمح الله تعالى ان نعتبر بهذا ، لكن رجعت البيعة
بعناية الله فيما بعد .

موت نور الدين

في عام ١٤٨٥ يونانية كان سلطان نور الدين يمتد من اشور وبين النهرين الى سورية ومصر ، وكانت كل هذه البلاد وكل أمراء الامارات التي بها تخضع لأمره كالعبيد،فانتفخ غطرسة وجبروتا عندما خضع له ايضا الذين في كبدوكية وقيليقية،فتأهب في هذه السنة ليحتل المملكتين دفعه واحده ، مملكة الافرنج في القدس وأنطاكية ، ومملكة الأتراك في بلاد حران ، وكان رسله يجوبون كل مكان ساعين في تجنيد الرجال لهذه الحرب حيث كانوا يجمعونهم في دمشق بعد ان يأتوا بهم من داخل بلاد العرب ، وبلاد اشور ومن بين النهرين وأرمينية وكبدوكية وسورية وقيليقية ، وكانوا جموعا تفوق العدد والتصوره وعم الخوف والفرع والهلع كل مكان ، ولاسيما بين المؤمنين المظلومين ، لكن الرب المتسلط وحده على ممالك الأرض حكم فجأة على نور الدين وانتهت حياته وطموحاته وأفكاره ، فعم الفرخ ليس بين المسيحيين فقط بل وبين الأمراء الذين كانوا متضايقين جدا ، فقد منعهم ان يشربوا الخمر في معسكره ، وكذلك منع الغناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره الطابع الديني ، فكان دائما يستمع الى القران والحديث ، لأنه كان يعتبر نفسه نبيا، وكان يدعي ان الله يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع موسى .

اما العرب فقد اعتبروا ان مايدعي به هذيانا وخروجا فاضحا على الدين ، غير ان بعض المرانين والمنتفعين كانوا يقولون له : لقد رايناك في مكة او في المسجد الفلاني ، وكان يتقبل كلامهم بفرح وسرور

وملك نور الدين ثمانية وعشرين سنة ، وملك بعده ابنه الصالح في حلب ودمشق

الملك الصالح اسماعيل

بعد موت نور الدين ملك ابنه الملك الصالح فقام الملك عموري ودخل الى بلاد دمشق وسبهاها ودخل على بانياس ، وخاف المسلمون كثيرا خصوصا انهم كانوا يستعدون ليطردوا الافرنج ، واذا بالافرنج اتوا ليملكوا على بلادهم ، لذلك ارسل اهل دمشق رسلا لهذا الملك طالبين ان يؤدوا له الجزية كما كانوا فيما سلف، لكن الملك رفض ذلك ولم يقبل ان يعقد معهم صلحا قط ، بل تهيأ ليضمن الحرب عليهم لكنه مالبت ان مرض ، ولما علم ان اجله قد دنا اسرع واخذ الذهب من الدمشقيين وعقد معهم صلحا، ورجع الى عكا ومات هناك في اول تموز سنة ١٤٨٦ يونانية، اي بعد اربعين يوما من وفاة نور الدين .

وقد احدث موته حزنا للمسيحيين الذين كانوا يأملون ان يعيشوا افضل بعد موت نور الدين ، فخاب املمهم بالموت الاليم لهذا الملك الذي كان في بداية الشباب .

ملك عموري اثنتي عشرة سنة ، وقد خلفه ابنه المسمى بلدوين باسم عمه المتوفى وكان عمره خمس عشرة سنة، ولما ملك ثبت الصلح الذي كان قد عقده والده مع ابن نور الدين .

في صيف هذه السنة اي ١٤٨٦ يونانية لما سمع قلج ارسلان بوفاة نور الدين هاجم بلاد الدانشمديين فخافوا كثيرا وتم فيهم قول ارميا النبي : « ملعون هو كل من اتكل على الانسان وصنع ابن اللحم ساعده، ويبعد من الرب اتكاله فيكون مثل الجذر الذي ليس له ماء»، واستطاع السلطان ان يتسلط عليهم ويقتلهم واخذ سبسطية ونوقيسارية وقومانا وباقي مدن كبدوكية وكل قلاعها ، وقد عظم السلطان قلج ارسلان هذا فهرب كل الامراء من وجهه

واختبأوا ، أما رئيسهم ذو النون فقد التجأ الى القسطنطينية ، واستنجد بملك اليونان ، فلم يقبله ، وانتهت عند ذلك زعامة بني دانشمند التي ابتدأت مع بداية خروج الأتراك لهذه البلاد ، والاستيلاء عليها من اليونانيين سنة ١٤٦٢ يونانية ، وقد ملكوا مائة واثنين وعشرين سنة قام خلالها ستة رؤساء من سلالتهم .

وبهذا الزمان انتهت زعامة بني دانشمند في كبدوكية .

وبهذا الصيف ابتدا ينبت العشب وحسنت الغلات بعد أن صار جوع عظيم لمدة أربع سنين في كل من سورية وفلسطين ، وفي أثور وارمينية وبلاد فارس ، ووصل الى سجستان ، وأيضا وصل الى الهند الكبيرة ، فالآن قد بدل الرب القادر على الكل ، فصار شبع لاسيما في أرض مصر حيث كثرت الغلال وخصوصا الحنطة فصار حملان من الجمال بدينار واحد .

بعد موت نور الدين خرج ابن اخيه سيف الدين من الموصل، وأخذ نصيبين، ونقض النواميس التي وضعها عمه ، وكسر الحجر التي كان قد كتب عليها النواميس ، وكانت موضوعة بالمسجد وأمر بشرب الخمر علانية ، وأتى اليه أمراء ماردين وحصن كيفا ، كذلك مضى الى حران وملك عليها وأخذ سروج وقالينيقوس ، وخضع له ابن عمه حاكم حلب ودمشق ثم رجع الى الموصل .

وفي تلك السنة ملك صلاح الدين الذي كان يملك بمصر أيضا على بلاد العرب الداخلية وعلى أماكن من ممالك النوبة ، ونجح نجاسا عظيما .

وفي هذه السنة قام الأرمن أصحاب جبل ساسون الذي كانوا يملكونه منذ عدة اجيال بالتخلي عن قلاعه الى شاه ارمن صاحب اخلاط، وذلك نتيجة لما تعرضوا له من ضغوط ومضايقات من أمير ميافارقين. وفي هذه السنة انتزع الأتراك من الفرس مدينة أني.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية في ١٥ كانون الأول قتل في قلعة مساردين الطواشي امين الدين مدبر البلاد ، وقد قتله الأمير قطب الدين ، وأخذ رأسه بيده ، ودخل على أبيه الشيخ وقال : لقد اراد ان يقتلني فقتلته ، فأما الشيخ أبوه فقد أصيب بصدمة شملت لسانه فلم يجب .

وفي تلك السنة عصت على مليح حاكم قزليقية عساكره لمعاملته السيئة النجسة ، وحاولوا قتله ، ولما أحس خرج من المعسكر ليلا وهرب الى إحدى القلاع، لكن حراس تلك القلعة كانوا متعاطفين مع العساكر فأمسكوه وقطعوه عضوا عضوا ، وأعطوه للكلاب فأكلته ثم أحضروا روفين ابن أخيه اسطفان من طرسوس ، وكان مختفيا هناك خوفا من عمه وملكه عليهم ، حينئذ قتل الذين قتلوا عمه لأنهم رموه للكلاب .

وفي هذه السنة صار في بغداد تمرد على الخليفة المستضيء من عبده قطب الدين ، فجمع عسكرا وحاصره في داره طالبا منه ان ينصبه سلطانا، فلما تضايق الخليفة صعد الى سطح داره وأخذ يصرخ بأعلى صوته باكيا متضرعا مستنهضا همه الشعب الموجود داخل المدينة ليجمعوا وينجوه من أيادي هذا المتمرذ ، فاجتمع اليه الاف ، وبعد قتال عظيم هرب العبد ومعه ثلاثون الف فارس ، وتوجهوا الى البرية لينجوا فساروا خمسة ايام لم يجدوا فيها ماء ، فتضايقوا من العطش، فأرسلوا رسلا الى حاكم الموصل الذي وعد ان يصلح الامر بينهم وبين الخليفة ، ولما توجهوا لكي يمضوا للموصل ادركتهم ريح حارة ومحرقة ، فبيسوا وصارت الناس والبهائم كالخشب الأسود حتى ان الحيوانات عافت ان تأكلهم لأن رؤوسهم متصلبة كالحجارة ، ثم استطاع ان يصل الى الموصل مائة رجل منهم ، لكن الاطباء لم يستطيعوا ان ينقذوا أحدا منهم فماتوا جميعا وصاروا عبرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية ، يوم الأحد ١٥ شباط ، قتل امير

ملطية أخيه الذي كان قد ملك أولا ، ثم ترك الملك والمدينة وهرب بحالة من الذل ، وبقي متشردا خمس سنوات يعيش عيشة بنخ وفسق وفجور ، فأمسكه نور الدين وحبس له لكنه ما لبث أن هرب وأتى انطاكية وتبع الافرنج ، لكنه لم يجد هناك راحة فعاد وهرب من هناك ورجع إلى الترك ، وجاء إلى عند السلطان فأعطاه هرقلية ، وكان يريد ملطية ، وعندما أصر على ذلك عاد فأخذ هرقلية منه ، فتوجه إلى الأتراك الذين في ناحية الشرق فأمسكه نور الدين وزجه بالسجن في مدينة البيرة على شاطئ الفرات ، وعاش هناك في ضيق حيث كان يقتات من الصدقة ، وقد تجاسر رهبان دير مار برصوم وأرسلوا له صدقة مع رسل من الرهبان أنفسهم، لأنه عندما كان حاكما كان يحب الدير ويكرمه ، وقد استفاد الدير من هذا كما سنوضح القول فيما بعد .

ولما مات نور الدين خرج من السجن وسمع أن امرأة أخيه تركت ملطية بسبب بغضها لبعها ، ورجعت إلى قلعة زياد عند أبويها ، فتوجه إلى هناك حيث شجعه هؤلاء كثيرا ، فأخذ سرا ماخف حمله وتوجه إلى دير مار برصوم ونذر له نذورا كبيرا إذا رجع وملك ملطية ، وأقسم أيضا أن يعتق الدير من الخراج ، وبعد ذلك توجه إلى المدينة بزي مسكين شحاذ وقت المساء ، ولم يعلم به إلا رجلين كانا معه فقط ، وقد أخذاه إلى أحد الأتراك وكان يحبه منذ زمن ، واختفى في بيته مدة يومين ، ثم خرج ليلة الأحد المذكورة مع رفيقيه مخاطرين بحياتهم ، ووصلوا إلى الدار ودخلوا البستان دون أن يعلم بهم الحراس ، فوجدوا هناك سلما مطروحا على الأرض فوضعه على الحائط ودخلوا البيت الذي كان ينام فيه ذلك الشقي مع المرأة العجوز مربيته ، وفجأة استيقظ الصبي والعجوز خائفين ، مذعورين يرتجفان فبادره بضربة على رأسه قتله على الفور ، وأخذ مفاتيح أبواب المدينة والقلعة ، وحمل رأس أخيه بيده وأخذ يجول على قواد العسكر ، وكان قد مضى أولا عند الذين يعرف أنهم مؤيدوه ، وكان الناس يستيقظون في نومهم ويرون رأس الأمير المقطوع فيسلمون فورا له ، ثم أخذ مائة رجل تقريبا وصعد عند

انبلج الفجر إلى القلعة ونصب أميراً جديداً ، وقد خاف الجميع ، أما المؤمنون فقد التزموا بيوتهم ، وأما الأتراك فقد امتطوا خيولهم وامتشقوا سيوفهم وتجمهروا أمام باب القلعة وأخذوا يخاصمون معتقدين أن أميرهم لم يقتل ، لكن لما رمي رأسه من أعلى السور وتدحرج بينهم تأكدوا أنه هو ، حلفوا كلهم لمحمد هذا ، وكذلك حلف هو لهم أيضاً ، ولما تنصب وملك الغي الخراج عن دير سيدنا مار برصوم كما وعد ، لكن الرهبان قالوا له إنهم سيعطوه باختيارهم كل سنة ثلاثمائة دينار، على أن يلغي مازاده عليهم الأمير غازي لأنه قبل الأمير غازي لم يكن يتقل على الدير، وكان الأمير غازي قد وضع على الرهبان سبع مائة دينار كل سنة، لكن الأمير عاد فألغى الخراج عن الدير وذلك وفاءاً لذره، أما الرهبان فلم يرضوا وأصروا أن يدفعوا الخراج وذلك حتى لا يستعدوا المسلمين عليهم، فما كان من الأمير إلا أن زار دير مار برصوم ووهبه مالا .

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية يوم الأحد الثاني للفصح في ١١ نيسان عند الصباح، وبعد قراءة الأنجيل، أي عند انتهاء الخدمة تقريباً أظلمت الشمس كلياً وصار ليل، وظهرت الكواكب في السماء وبدأ القمر بقرب الشمس وكان مشهداً محزناً ومفزعا لكثير من الناس فأجهشوا بالبكاء، أما الغنم والبقر والخيل فقد تشابكت مع بعضها من الخوف، وبقي الظلام ساعتين ثم أضاء، وبعد ١٥ يوماً في نيسان ليلة الاثنين مساءً انكسف القمر في الموضع الذي به أظلمت به الشمس .

المجد لعارف الكل .

وفي هذا الربيع قل المطر وصار حراً شديداً فيبس الزرع وباقى الحبوب، وصار عطش عام وقد فرغت قرى كثيرة كلياً من السكان لاسيما في القدس وفلسطين وسورية العميقة، وبلاد نصيبين، وفي طور عبيد وفي بلاد الموصل، ولم يحصدوا الزرع أبداً وقد فقد الماء تماماً حتى لم يعد يشرب الناس والبهائم .

« قدوم صلاح الدين إلى دمشق »

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية خرج صلاح الدين الذي كان يملك في مصر وأتى إلى دمشق لأنه سمع أن حاكم الموصل قد أخذ من ابن نور الدين حران والرها، فأتى بحجة ابن سيده، وبهذه الحيلة تمكن على دمشق ونواحيها ، أما الصبي ابن نور الدين وأمه ومربيته الذين كانوا في حلب فقد خافوا منه، لكنه أرسل رسلا يقول لهم بأنه ما هو إلا عبد وقد جاء ليخدم الصبي ويصير له مربيا ويحارب أعداءه ويطردهم، فلم يصدقوه ولم يفتحوا له الأبواب، ولما نظر ذلك كشف عن نيته الحقيقية فأخذ حمص وحماه حربا وأحضر من مصر زهبا كثيرا وصار يلقيه كالتراب ويجمع العساكر ، وأخرج الفرنجة الذين كانوا محبوسين في دمشق منذ بداية حكم نور الدين وصنع صلحا مع الأفرنج .

أما سيف الدين حاكم الموصل فقد أرسل عساكره ليطرده، فعندما وصلوا أخذوا يهزؤون به ويحقروه ويدعونه الكلب المكش على سيده ، أما هو فكان متواضعا جدا فأرسل لهم رسلا يقول لا يجوز لنا ونحن بيت واحد أن ننقسم، لكنهم شتموا رسله وهجموا عليه مسرعين لئلا يهرب ويفلت من أيديهم ، لكن الله الذي يكره المتكبرين والمرتفعين أضعفهم ورمى في نفوسهم الخوف والهلع فهزبت العساكر على كثرتها ، فأمسك أكثرهم وأخذ فيلهم وجمالهم وسلاحهم ، وهنا وقف موقفا يستحق الذكر إذ لما راهم أنهم بدأوا يهربون صرخ بصوت عال وطرح قبعته أرضا وقال : لا تقتلوا أحدا فهم أخوتنا ، وأخيرا حتى الذين كانوا أسرى أعطاهم زادا وخيلا وأرسلهم بسلام .

وقد كان لسلكه هذا وقع حسن في نفوس المسلمين .

أما الذين في حلب فإنهم لما نظروا انتصاره خافوا جدا وأرسلوا

هدايا لحاكم انطاكية ليكون مساعدا لهم ، وفتحت الأبواب لبيع في حلب الملوك الذين كانوا مسجونين فيها منذ زمن طويل ، وقطع رجاؤهم من العودة ، فبيع كونت طرابلس بثمانين ألف، وجوسلين بن جوسلين بخمسين ألف، ورنجر فرينز بمائة وعشرين ألف، وكانوا قد أرسلوا عدة مرات ذهباً من القسطنطينية لأجله فكان يدفع ثمننا لغيره ويبقى هو ، أما الآن فقد خرج مع كل الباقين .

عاد سيف الدين حاكم الموصل بعد أن انكسرت عساكره، فجمع عسكرا اضعافا مضاعفة، ومضى معه حاكم ماردين وحاكم حصن كيفا وكان مجموع الجيش ستين ألفاً، وكان بإمرة صلاح الدين إثني عشر ألفاً فقط، فأرسل إليه قائلاً : لا تطلب حرباً لأنني إن انكسرت فأنا عبد لا أتعير من أولاد ساداتي ، أما أنت فإنك ملك إذا انكسرت فسيكون هذا عار عظيم عليك ، لكنه استخف به وشتمه، ولما اشتعلت الحرب رشما صلاح الدين رؤساء العساكر الذين كانوا يقودون جيش سيف الدين بمال كثير وذهب وافر فانسحبوا وتركوه وحيداً على جمل ، فرجع إلى الموصل يجر أذيال الخزي والعار ، أما صلاح الدين فقد مضى إلى منبج فسلمه إياها العرب الذين بها واعتقل الأمير الذي بها ، وكان هذا فيما مضى حاكماً للرها واسمه قطب الدين ينال بن حسان ، أخذوا مقتناه ظلماً ، لكن بعد خمسة أشهر أخرجه صلاح الدين فمضى إلى الموصل ، وبعد هذا أتى إلى طاعته الأمراء الذين في تل باشر وعين تاب وباقي بلاد سورية ، ثم مضى نحو أعزاز فهناك هجم عليه المدعوين بالحدشيشية وضربوه بالسكاكين لكنه لم يمت ، وعندئذ قتل مهاجميه وأرسل عساكر سبوا بلادهم ، وبعد ذلك أخذ أعزاز بالحرب وحل على حلب أيضاً فالتجأ أهل حلب إلى الأفرنج فأرسل أولئك إلى رنجر الذي كان قد خرج من الأسر فانتصر وقتل عدداً كبيراً من العساكر ، ثم نخل الأفرنج إلى بلاد دمشق أيضاً وقتلوا هناك شعباً كثيراً وسبوا ، ثم أرسلوا أيضاً عساكر إلى مصر وسبوا تلك البلاد ، ولما تضايق صلاح الدين من الأفرنج رد أعزاز إلى حاكم حلب وصنع معهم صلحاً ، ورجع إلى مصر مسرعاً.

« حرب بين الأمير منويل وقلج أرسلان »

لما سمع منويل ملك اليونانيين أن ابن اخته قتل على سبب نوقيسارية هجم غاضبا على الأتراك يريد الانتقام ، لكن السلطان أمر عساكره أن لا يحاربوا ، بل أن يمضوا مجموعات حول معسكره من اليمين واليسار والخلف ، وينهبوا القرى وكل أنواع القوات للبشر والبهائم ، وكذلك أن يسمموا مجاري المياه والعيون والآبار بجثث الكلاب الميتة والحمير وبكل أنواع النتانة والنجاسة .

وأمر أيضا الذين في القلاع أن لا يحاربوا بل أن يقاوموا قدر الامكان وإذا ضعفوا فليحرقوا البلدة كلها وينتقلوا ، أما السلطان فقد صعد إلى جبل عال ووعر وكان ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، حينئذ دخل الملك بقوات إلى عمق بلاد الأتراك مسيرة خمسة أيام ، ولما راه التركمان سكان تلك البلاد خرجوا كالذباب الذي ليس له عدد على ملك اليونانيين ، وأخذوا يحرقون ويخربون ويقتلون كل من وجدوه خارج معسكر اليونانيين ، ولما وصل اليونانيون إلى قرب قونية ، وصارت تفصلها عنهم مسافة يوم ، بينما كان يفصلهم عن المكان الذي يختبئ فيه السلطان مسيرة ثلاث ساعات دخلوا بين الجبال في موضع ضيق ليس فيه ماء ، وكان برفقتهم خمسة الاف عربة تحمل المؤن والسلاح وخشب المنجنيقات ، وذهب البيع والصلبان ومقتنيات أخرى متنوعة ، فانتظر التركمان حتى ابتعد الملك وعساكره عن قافلة العربات هذه ، فهاجمها نحو خمسين الف رجل فسبوا ونهبوا كل المعسكر ، فلما سمع الملك وعساكره أن متاعهم ومؤنهم وأسلحتهم قد سببت ، كذلك هاجمت القوة التي كانوا ينتظرونها خافوا وارتبكوا ، ولما علم الأتراك بخوفهم أخذوا يدرجون عليهم الصخور الكبيرة من رؤوس الجبال ، وقد دهست وهشمت هذه الصخور الناس والحيوانات ، وكان الجنود يتدافعون للالتجاء في الخنادق وهم مزعورين من ملاقاته الترك ، وقد وصل

الأتراك إلى مسافة قريبة منهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يرموهم بالسهام ليلا ، حينئذ وفي منتصف الليل أرسل الملك إلى السلطان طالبا الصلح ، أما السلطان فكان بدوره خائفا ، لذلك قبل سريعا ، وكانت الرسل تأتي وتروح بالمصابيح طوال الليل ، وأعطى الملك للسلطان المدن الثلاث التي بناها ، وفي الصباح نادوا بالصلح ، فتحلق الترك حول السلطان وأخذوا يصيحون كافر ، كافر من قبل الصلح، واضطر الملك أن يصطحب معه ثلاثة أمراء من أمراء السلطان حتى لا يتجاسر عليه التركمان ، أما الترك فلم يلتزموا إذ عندما بدأ اليونانيون يرحلون كان الترك يهاجمونهم من كل جانب ويقتلون اليونانيين ، وحينئذ قال الملك للأمراء الذين عنده: لماذا يحدث هذا بعد توكيد الاتفاق بالايمان؟ فأجابوه: هؤلاء ليسوا تحت أمرنا ، عند ذلك صنع الملك كمائن للترك ، فقتل منهم عشرين ألفا ، لكن لما دخل الملك القسطنطينية أرسل ذهبيا كثيرا إلى السلطان ، وأخذ الصليب الذي يحتوي على قطعة من الصليب الذي صلب عليه المسيح ، وبعد ذلك أرسل السلطان إلى الخليفة في بغداد وإلى كل الأمراء وإلى سلطان خراسان عددا كبيرا جدا من العبيد والسلاح ورؤوس اليونانيين وشعورهم، محمولة على رؤوس الرماح، أو مربوطة في أذناب الخيل ، وهكذا كانت نهاية اليونانيين ومن لا يستطيع أن يعترف أن كل هذا يصير بأمر الله وأحكامه غير المعروفة؟!

« موت نجم الدين حاكم ماردين »

في عام ١٤٨٧ في ٢٧ تموز مات نجم الدين حاكم ماردين ، وذلك بعدما ملك اثنان وعشرين عاما ، وكان عهده عهد خير ورفاهيه لشعبه عامة وللمسيحيين خاصة ، كذلك كانت البيع والأديرة .

ملك بعده قطب الدين فاضلهد أعمامه وضايقهم كثيرا ، مما دفع حاكم الموصل وحاكم حصن كيفا أن يتوسط لهم حيث صاروا بعدها تحت طاعته كما كانوا أيام أبيه ، ثم أتى أثناءها حاكم حاني وحاكم دارا ودخلا قلعة ماردين وسجدا له وتصالحوا ، وبعد هذا أذيع خبر انه مات وأن الخراب عم بلاده ، لكن تبين انه كان مريضا فشفي وعاد كما كان ، ثم تحارب مع العرب وقتل منهم الوفاء واخذ من جمالهم إثني عشر ألفا من الجمال ، وهرب الباقي ثم تصالحوا واصطلحت البلاد .

وفي هذا الزمان خرج ملك اليونانيين للصيد فضربه خنزير بري وذاع خبر انه مات ، فقام السلطان وسبى بلاده ، لكن الملك الذي تعافى اكتشف أن السلطان لم يحفظ الجميل الذي كان قد أسلفه إياه فغضب جدا ، وزاد نار غضبه الأمراء أولاد داندشمند الذين هربوا من أمام السلطان ، الذي يسارع فأخذ بلادهم ، فالتجأوا إلى القسطنطينية إلى الملك ، فأخذ السلطان بلادهم لقمة سائغة ، لذلك جهز الملك جيشا غطى وجه الأرض ، وسير امامه أولاد داندشمند ، وعندما وصل هذا الجيش إلى حدود الأتراك أخذ يضايق السلطان ليعيد أولاد داندشمند إلى بلادهم التي كان السلطان قد أخذها منهم ، وكذلك لكي يتنازل لأخيه ، لكن السلطان رفض ، وعندئذ افتتن الجانبان ، وقام الملك ببناء مدينتين كانتا مخربتين منذ زمن بعيد ، ووضع بهما عسكرا أخذ يهاجم الأتراك ، ثم أرسل الملك جيشا فنهب وسبى شعب التركمان وقتل منهم الوفاء وحينئذ توجه

التركمان الى ناحية الشمال ودخلوا إلى بلاد اليونانيين دون أن يعلموا أين هم فسبوا مائة ألف من الناس ، وقتلوا الرجال والنساء ، أما الأولاد فقد باعوهم إلى التجار ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا إلى فارس ، وحينئذ هاجم الملك السلطان فهرب من وجهه وأخذ ينتقل من جبل إلى جبل ، والملك يطارده ، وكان في الحقيقة لا يريد أن يتحارب مع الملك .

ثم أرسل الملك مع الأمير ذي النون ثلاثين ألفا من العساكر ليملك نوقيسارية، فحاصروها وعندما أرادوا أن يقتحموها احتال الأتراك الذين في داخلها ، فكتبوا رسائل على لسان المسيحيين الذين في النون الذي وضعت ثقته فيه ماسو إلا إنسان مكار ، ويريد خداعكم ، وهو متفق مع الأتراك أبناء جلده وعشيرته ، ويستعد لاهلاككم ، ووجهوا الرسالة بواسطة سهم إلى معسكر اليونانيين ، فارتعد اليونانيون وخافوا ، وأخذوا يهربون وحينئذ خرج عليهم الأتراك من ضمن المدينة وهم يصرخون : لقد مات منويل الملك ، وبدأوا القتل فيهم ، فقتل رئيس العسكر ابن أخت الملك ، وهرب ذو النون إلى الشمال فأمسك به اليونانيون وأرسلوه إلى الملك .

وبهذا الزمان أمر الرب فعبرت أيام الجفاف ، وعاد المطر فجرت الينابيع ، والعيون عانت متفجرة ثانية ، ونجا البشر والبهائم من العطش ، لكن الأرض لم تنتج غلالها

وفي عام ١٤٨٧ غضب الله فأجدبت الأرض وعم الجوع وصار المساكين يتوسلون في كل مكان ، وصار بالقدس ودمشق وحلب وبريه المليحة كيل الحنطة بثلاثه ذهبيات ، وبعد مدة فقد لم يعد يوجد ، وفي هذه الفترة أتت قوافل العرب بجمالها الكثيرة ليأخذوا حنطة ، وصار يباع الذهب الأحمر في بلاد سورية بنصف ثمنه ، وارتفع سعر الحنطة في هذه البلاد حتى صار المد بدينار .

وفي هذا الزمان تراءى في السماء في ناحية المغرب شيء يشبه

- ٢١٩٦ -

نصف القمر ، وقد صعد إلى ناحية المشرق ، وكلما كان يصعد كان يكبر حتى صار بحجم القمر ثلاث مرات ، ثم استقر في وسط السماء ، وانفجر إلى ثلاث قطع وسقط ولم يعد يظهر أبدا ، ولما انكسر ملك اليونانيين عرف كل واحد أن هذا كان إشعارا بذلك .

« فرار صلاح الدين عند عسقلان »

في تشرين ١٤٨٩ يونانية خرج صلاح الدين من مصر وأخذ معه ثلاثة وثلاثين ألفا من الفرسان ماعدا المشاة وغيرهم واثنين وخمسين ألف جمل يحملون السلاح والنخيره لبلاد القدس ، وقد قتل بيده أول أفرنجي أسروه ، وغسل ثيابه بدمه فارتاع الأفرنج ، وكان ملكهم مصاب بمرض الجذام ، وكان كل واحد يخاف أن يقترب منه ، لكن الله الذي يظهر قوته في الضعفاء نفخ الشجاعة في قلب الملك المريض فخرج نحو عساكره ، فاجتمعوا حوله وحينئذ ترجل عن صهوة جواده ، وسجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء وأخذ يتضرع ، فهاجت حمية الجنود وأقسموا على الصليب أن يحاربوا حتى النهاية ، وإذا كسرهم الأتراك فكل من يهرب قبل أن يموت يعتبر كافرا ، أما الأتراك فقد استهانوا بهم بعد أن علموا بانهايار حالتهم المعنوية ، لكن الأفرنج لما رأوا الأتراك بأعدادهم الهائلة يغطون التلال ويتموجون كالبحر نزلوا من مراكزهم ، وجذوا شعورهم وتعاهدوا مع بعضهم ، وصلوا الصلاة الأخيرة ، وبدأوا الحرب ، وفي ذلك الوقت أرسل الرب ريحا قوية كانت تجرف التراب من ناحية الأفرنج وتلقيه على الأتراك ، وحينئذ علم الأفرنج أن الله قد قبل توبتهم ففرحوا وتشجعوا ، أما الأتراك فقد هربوا من ساحة المعركة ، فلحق بهم الأفرنج وكانوا يقتلونهم ويذبحونهم طوال النهار ، وبعد هذا نهبوا أمتعتهم وأخذوا جمالهم ، وأخيرا تبديت عساكر الترك وتاهت وبقيت خمسة أيام على هذه الحالة ، وعسكر الأفرنج يلاحقونهم بعد أن تحولوا إلى شراذم أنهكها الجوع والعطش والاعياء فقتلهم ، وجمعوا أسلحتهم وثيابهم ، أما صلاح الدين فقد هرب إلى مصر مع ثلثة من حرسه يجرون أذيال الخبيسة والحزن ، وأما الأفرنج فقد وصلوا إلى أنطاكية فرحين يصيحون في الشوارع مبتهجين بهذا الانتصار ، وقد كنت في أنطاكية وقت ذلك .

وفي هذه الأيام عندما علم والي قلعة حارم التركي أن حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله تمرد عليه ، فالتجأ إلى الأفرنج فأقسم له فرينز أن يساعده ليبقى في قلعته ، ولما عقد هذه المعاهدة مع الأفرنج صار حينئذ عدوا للاتراك ، لكن الأفرنج سرعان ما تخلوا عن عهودهم وداسوا قسّمهم ، فأتوا من القدس ومن ساحل البحر وأتى معهم والي طرابلس وروفين حاكم قيليقية وكونت فلنط (٤٧) مضى مع فرينز حشد كبير وحلوا على حارم أربعة أشهر كانوا يحاربون فيها بشراسة ووحشية ، وقد قتلوا العديد من الشعب الأعزل ، وقد انتصروا على الرغم من أنهم تجاوزوا يمينهم ، وحلفوا كذباً بالصليب والانجيل ، لكن الأتراك الذين كانوا يدافعون عن القلعة لما أحسوا بالتعب أرسلوا إلى حلب وأخذوا قسما من حاكمها وسلموه القلعة فأعطى لفرينز عشرين ألف دينار ، فرجع إلى أنطاكية خائبا حزينا كسير القلب لأنه لم يستطع أن يحقق ما يريد .

« احتلال قلج أرسلان ملطية »

بعدها صنع السلطان قلج أرسلان صلحا مع منويل ملك اليونانيين ، حل على ملطيه وكان بها أمير من أسرة دانشمند هو الذي قتل أخاه ، وكان هذا مع جنوده أشرار المسلك ، وقد خرج أكثر المسيحيين منها هربا من الجوع الذي كان منتشرا في كل مكان وخصوصا فيها ، أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يعيشون بحالة من الشقاء ، وكان قسم منهم يرقد في أعماق السجون ، والآخر في المعتقلات يتعرض للتعذيب والجلد ، فلما حاصرها قلج أرسلان خاف أمير المدينة أن يقتله الشعب ويسلموا المدينة ، لكثرة الشقاء الذي يعيشون فيه ، فأرسل سرا إلى السلطان وطلب الأمان لحياته طالبا مغادرة المدينة بالذهاب إلى قلعة زياد ، فدخل السلطان ملطيه يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٤٨٩ يونانية وقد عم الفرج والراحة الجميع بعد أن كان قد حاصرها أربعة أشهر كان فيها الجنود يقيمون في بيوت انتزعوا حجارتها من المقابر ، وبنوها بسرعة من اللبن إتقاء لبرد الشتاء ، وهكذا أراح الرب الاله هذا الشعب المظلوم .

وفي هذا الزمان أدب الرب أيضا الأرض فمنع المطر لأجل آثامنا فبيست الغلال ، وحدث جوع في سورية وفلسطين وأثور ، وبين النهرين وأرمينية وصار كل كيل من الحنطة بدينار إن وجدت .

أما في دمشق فقد فقدت الحنطة وكذلك باقي الحبوب ومات بسبب الجوع أعداد كبيرة وأعداد أخرى هربت إلى بلاد بعيدة جدا وكان المسيحيون في كل مكان يصلون ويطلبون من الله أن ينزل المطر وقد تصدق عدد كبير من الملوك الذين عندهم حنطة على المحتاجين .

كما أن همفري بطريك الافرنج في انطاكية وهب حنطة وحبوبا أخرى بكثرة وفي كل مكان ، ثم أشفق الباري تعالى فنزل المطر في

- ٢٢٠٠ -

نصف فصل الربيع ، وارتوت الارض وابتهج الجو وصار البشر
يسبحون الله ، وصار خير ورقاه في كل البلاد .

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الافرنج

في تشرين الاول اجتمع مع بدوين الملك جميع الافرنج على شاطئ الاردين في الموضع المدعو مخاضه يعقوب وابتدأوا يبنون مدينة يستطيعون بها أن يحاصروا دمشق ، كذلك خرج صلاح الدين من مصر وأتى إلى دمشق لانه تمرد عليه الأمير شحنه مدينة بعبك - هيلوبولوس أي مدينة الشمس - ولما حاصرها وأخذ يهاجمها بدأ أميرها يرسل الافرنج ويرسل لهم الهدايا متعهدا أنه سوف يطيعهم ، ولما لم يتجاوب معه الافرنج وخاب أمله منهم رجع الى صلاح الدين وأخذ عهدا منه وسلمه المدينة ، حينئذ دخل صلاح الدين الى أرض فلسطين لكن عادوا فجمعوا قواتهم ، وعندها انسحب صلاح الدين الى دمشق فما كان من الافرنج الا ان سبوا البلاد مسافة مسيرة يوم ورجعوا ، لكن صلاح الدين مالبت ان ارتد عليهم وهاجمهم وأمسك منهم مائة من المقاتلين وكذلك مقدم الرهبان الداوية ، وقد تألم المسيحيون جدا أما صلاح الدين فقد قوي ورجع مسرعا إلى الموضع الذي بنوه حديثا وحاصره وكان به خمسمائة من الرهبان الداوية ، لكن بعضهم رمى نفسه بالنار واحترق وبعضهم الآخر القى نفسه في الاردين ومات غرقا خوفا ان يقعوا في أيدي العرب ، اما الذين وقعوا بيد العرب فقد قتلوا جميعهم بالسيف .

في هذا الزمان خرج من جزيرة العرب حشد كبير من الناس هربا من الجوع ، ولما وصلوا إلى شاطئ الفرات أمرهم الأمراء أن يرحلوا لأنه ستكون مجاعة بسببهم لانه لا يوجد طعام يكفي لهم ، وإذا بقوا فسوف تحل المجاعة ، لكنهم رفضوا ، فهاجمهم الاتراك وقتلوا منهم ثلاثين ألفا، وعندئذ عبر ماتبقى منهم الفرات ، ولما دخلت جمالهم ونساؤهم ورجالهم وأولادهم الماء جرفهم التيار فماتوا ثم عادوا وطفوا على وجه المياه كالقش .

في ايار عام ١٤٨٩ يونانية كنت في أنطاكية فنزل مطر شديد

وتكونت سيول بداخل المدينة فجرفت البيوت والدور ، فاختنق العديد من البشر والبهائم ووصل السيل الى ابواب المدينة وكان غزيراً لدرجة لم نستطع معها ان نفتح الابواب ، وقد دب الزعر والهلع في قلوب الناس .

وفي السنة التالية ، وكنت في انطاكية ايضاً ، كان الشتاء لطيفاً مثل الربيع ، لكن في شهر اذار سقطت نار في المدينة واحرقت بيوتاً ودوراً كثيرة قرب بيعة مار بطرس الكبيرة ، وقد حفظ الله تعالى الناس ، ولم يتضرر احد .

في تلك السنة وكنت في انطاكية ارسل بابا روميه رسلاً للبطريك الانطاكي والمقدسي للافرنج يستدعيه لاجل بدعة ظهرت هناك فأرسل الينا بطريك انطاكية اسقف طرسوس وقسيسين من قبله ، وطلب مني ان امضي معه ، اما انا فقد بحثت عن السبب فوجدت ان مجموعة من الافرنج في تلك الارض كانوا مشهورين بتقواهم وصلاحهم فأضلهم الشيطان فقالوا : لا يمكن للخبز والخمر ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وان التطبيق العملي للدين هو التصديق على المحتاجين والرحمة بالمساكين ، ومحبة البشر واتفاقهم مع بعضهم ، وصار لهم اساقفه وقضاة ، واتحدت معهم بعض البلاد ، وابعثوا نساءهم ، عندئذ دعا افسومولوس بابا روميه الى مجمع مسكوني ، اما نحن فقد رفضنا ان نذهب معهم لكننا كتبنا رأينا في مثل هذه البدع ، ونكرنا امثله لبدع مثلها انتشرت فيما مضى ، وقد حرمتها كنيستنا * (٤٨)

وبهذا الزمان اقمنا بنعمة الله في ماردين المطران مار اثنا سيوس وارتحلنا الى انطاكية وهناك ارتسم ديونسيوس لمدينة حلب .

وبهذا الزمان تحدث بعضهم الى السلطان الذي ملك ملطية ان رهباننا واهل الدير انهم ساعدوا الامير الذي كان فيها من قبل ، ولجل ذلك اعفاهم من الخراج ، فقام عندئذ ذلك السلطان ووضع عليهم خمسمائة دينار ، وضعهم من مقابلته ، ثم طرد من ملطية ، ومن كل بلادها الترك الذين تعاونوا مع اسرة الدانשמند .

وبهذا الزمان حدثت بيني وبين مار يوحنا المفريان مشاجرة بسبب الحصييين في بلاد تكريت ، اولئك الذين كانوا منذ ايام قوريا قوس البطريك (٤٩) وقد انشقوا عن البيعة لاجل لفظه : « نكسر خبز السماوي » والان ارادوا ان يعودوا الينا ولما جاؤوا الي وارانوا ان ارسم لهم اسقفا ، قلت لهم : ان المفريان هو الذي يرسم لانه رئيس اساقفة تكريت ، وينبغي الا تكونوا منسقين عن اخوتنا الذين هناك ، فامامهم فاعتبروا ان هذا اهانة لهم ، فطلبوا منا ان نرسم اسقفا وهم يقبلون بعد ذلك ان يكونوا تحت طاعة المفريان ، فاستمهلتهم لاثشاور مع المفريان وذلك حتى لايقع شقاق بيننا ، فكتبت للمفريان ، لكنه لما عرف ان الحصييين قد اتوا الي اعتقد انه اضاع كرامته ، فأخذ ينادي بين رعاياه بحرمان الحصييين وحرمان كل من يقبلهم ، ولما سمعنا اندهشنا واخذنا الامر بطول الاناة ، وارسلنا له رسلا ورهبان ليشرحوا له الوضع ، وانه كم عانى الاباء القديسين امثال قريا قوس وديو فنوس ، وكذلك اقرار مجمع خلقيدونية بقبول عودتهم والانن لهم بقول تلك اللفظة ، لكنه رفض ان يستقبل الرسل ، وكان يلوح بالعصيان ، لكن بعد ان عاد الرسل وبخه بعض الحكماء على فعلته ، فأتى الينا نادما ، اما انا فرفضت مواجهته وقلت : ان هذا الامر يجب بحثه في المجمع فرجع الي رعيته ثم جمعنا مجمعا في دير مار برصوم ، واتى هو واساقفته فاوضحنا له كيف وكم تجاوز من القوانين ، عند ذلك طلب الغفران بالطاعة ووعد بالناموسية ، فصلينا عليه ، وصار الصلح والسلام .

وفي تشرين الاول سنة ١٤٩٠ ارتحلنا من انطاكية ، وقابلنا الملك الصبي بلدوين في عكا ، وعرضنا عليه كتاب ابيه ، فلما راه معنا فرح جدا واکرمنا ثم زاد واعطانا كتابا منه مع عهد ، وحينئذ وصلنا الي القدس ، وهناك اتى الينا الرسل في مصر الذين ارسلهم مار مرقص بطريك الاسكندرية ، واعلمونا عن الانشقاق الذي وقع بهذا الزمان بين اخوتنا القبط ، وكان رجل اعمى يدعى ايضا مرقص ، ومشهور بابن قنبر ، وكان حانقا جدا بالكلام ، فبدأ يسحر الناس بكلامه

- ٢٢٠٤ -

المعسول كقول الرسول الالهي القائل : كما ان الشيطان يتجاسر ان يتشبه بملاك النور فهكذا أيضا خدامه يتشبهون بخدام الرب .

لذلك حرمنا ابن قنبر هذا كما حرمه مار مرقس لنفاقه ، وكتبنا صحيفه مستفيضة للشعب ، بعد هذا تبسع الخلقيدونيين واخيرا انجرف وارتمى في بحر الشرور .

مرض منويل ملك اليونانيين وموته

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) مرض منويل ملك اليونانيين ، وشعر بنو اجله فالتجأ الى احد الاديرة ، وترهب ونصب ابنه الكس ، وكان صبيا لايتجاوز الثانية عشر ربيعا من عمره والبسه التاج ، كذلك صنع زوجته ، اي ام الصبي راهبه ، ووكلها على خزائن المملكة واقام اثني عشر شيخا من النبلاء ليديروا امور العسكر ، وكان منويل قد حكم سبعا وثلاثين سنة ، ونجح كثيرا في حكمه ، لكن بعد موته عم الفساد المملكة لان ام الصبي الراهبه ارتكبت الزنا مع واحد من الاثني عشر الذين كان قد نصبهم الملك للاشراف على الجيش فقام الاحد عشر الاخرون وارادوا ان يخلعوها ويخلعوا ابنها ، وقيموا ابنة منويل الملك من المرأة الاولى ، ويبايعوا زوجها ملكا ، لكنهم لم يوفقوا في هذا المسعى ، فلقد انكشف امرهم ، فخافوا والتجأوا الى البيعة الكبيرة ، ثم حدثت مواجهة دامية في وسط المدينة كانت بمثابة حرب حقيقية دامت سبعة ايام ، وقد صوب جماعة الملك المنجنيقات نحو كنيسة ايا صوفيا حيث كان يعتصم المتمردون ، وحينئذ توسط ثيودوسيوس الذي ضمن سلامةالذين التجأوا إلى البيعة بعد اخذ عهداً من الملك وامه ، فخرج الجميع الى السراي لكن الملك وامه داسا يمينها والعهد الذي قطعاه للبطيريك وامرا باعتقال الزعماء الاحد عشر وقلع عيونهم وقتل اتباعهم، وحينئذ اندلع القتال من جديد ، فقام بطركهم وحرم المدينة كلها ، واوقف الصلوات في البيع ، وابطل قرع النواقيس في البيع والاديرة من اول شباط الى تشرين الاول حتى انه رفض ان يصلي على موتاهم ، ثم اعتصم في دير قريب من المدينة .

هجوم السلطان قلعج ارسلان على مدينة رعبان

في هذه السنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) ارسل السلطان قلعج ارسلان جيشا الى رعبان ، لكن اميرها التابع لصلاح الدين المصري ذهب الى دمشق ، واحضر منها جيشا ، ولما رآته عساكر كبدوكية هربت وعادت الى مدينتها ، صحيح ان الفريقين اتراك لكن الذين من حلب كانوا اكثر خبره في القتال وفنون الحرب نتيجة صراعهم وكرهم وفرهم الدائم مع جيوش الافرنج .

وفي تلك السنة ارتسم لقلعة زياد يشوع الكاتب في طور عبيدين ، وقد تجاوز منذ البداية الناموس وترك الكرسي الذي ارتسم عليه ليستولي على طور عبيدين ، فالتجأ الى سعد الدين الوالي الذي سارع فكتب لي بأن انقل اسحق مطران طور عبيدين ، اي ايونيس ، الى قلعة زياد وان اعطي طور عبيدين ليشوع الكاتب ، فأجبت الحاكم قائلا : ليس لنا في ناموسنا ان ننقل الاسقف في مكان الى اخر ، ولذلك لايمكنني ان اصنع هذه قط ، اما يشوع فقد حرمته .

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) قدمت من انطاكية الى دير مار برصوم ، ووضعنا الاساسات لنبني هيكلا بالدير ، فقام ضدنا تادروس ربما بدافع الحسد ، وبقي اثني عشرة سنة يعرقلنا ، ويضع المصاعب في طريقنا ، وسوف اكتب ماحدث معي بالتفصيل والله يشهد انني صادق في روايتي وكذلك يشهد معي عند كبير من اخوتنا الاساقفة والرهبان والشمامسة والعلمانيين ان ما اكتبه حق ، هذا على الرغم من انني لن استطيع ان اتكلم عن كل افعالهم الرديئة التي فعلوها ، بل سنروي امثلة منها ليتضح كيف بدأت الحكاية وكيف انتهت .

ففي هذا الزمان اتفق خمسة اتفاقا شيطانيا ليشقوا بيعة الله ،

فقد حاول اسقف ارزون (٥٠) ان ينتقل الى ميافارقين بطريقة غير قانونية معارضة ، فامتلا بغضا وحقدا علي ، كذلك يشوع الكاتب الذي ارتسم لقلعة زياد احتمى بالحاكم لينتقل الى طور عبيد ، ولما انحرم ناموسيا اتحد مع شمعون سرا ، ومضى كلاهما الى آمد إلى ابراهيم الذي كان اسقفا هناك ، وكان محروما لاجل جهالته ، وجرف هؤلاء الثلاثة معهم مطران سيبارك المظلوم ، الذي كان قد حرم ايضا لانه داس القانون وأخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا واخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا الحرم الذي وضع على كل منهم ، واذاعوا ان من لايقوم ضدي يكون غريبا عن رئاسته ، وليس له سلطان ان يصنع شرطونية وان تجاسر وصنع فتكون باطلة من الروح القدس ، ثم اتى اليهم ابن الشيطان وراس الطغمة ، بلاير الثاني ، وكان هذا قد طرد من ملطية بلده ، وانفضح في الرها ، ونفي من القدس ، ثم تجول كثيرا وكل مكان حل فيه كان يطرد منه ، واخيرا التجا إلي فسامحته لظني استطيع ان اصلحه واحوله الى انسان صالح ، لانه متعلم درس في الكتب ، وقد ابقيته سبع سنوات في قلايتي متحملا غشه وخداعه ، فقد كان جالسا على باب قلايتي مثل ايشالوم يتصيد كل واحد يختلف معي ويصفه الى جانبه ، وهكذا سرق هؤلاء الاربعة واقنعهم ان يصنعوه بطركا ، مقابل ان يعطي لكل واحد منهم رعبتين بدل الرعية الواحدة ، ثم تجمعوا وذهبوا الى السلطان حاكم آمد ، ووعده بذهب كثير اذا ساعدهم بتنصيب بطيريك ، يكون مقره في مدينته ، وبالتالي يقوم ويجمع من كل مكان ويعطيه . لكن ذاك لم يكن سهلا عليه ان يهدم نواميس ، ورتب بيع المسيحيين لاجل الذهب ، بل وكذلك نواميس المسلمين ، واعطاه كتابا للمدعو ابن وهبون من ابي القاسم ابن نيسان ، ولما اخذ ابراهيم اسقف آمد الكتاب خلع ثياب الكهنوت ، ولبس كسوة الترك ، وركب فرسا كالجندي لكي لايعرف ، ومضى الى ابن وهبون ، لكن الرب انزل غضبه على ذلك الحاكم الذي في آمد في تلك الفترة ، فمات فجاة ، اما هم فلكونهم قد

بفعلوا الذهب تقنموا الى ابن الذي مات ، وزادوا له الذهب واطهروا له كتاب ابيه ، فانن لهم ان يصنعوا ما يريدون ، لكن هذا الخبر سرعان ما انكشف في آمد ، فهج الشعب وماج ليس في المدينة ، وانما في كل البلاد واجتمع القسس والرهبان والشعب وضجوا على الحاكم قائلين : اننا لن ندع ان يهدم ايماننا ، فقال السلطان للشعب ، اذا اتى بطيريركم الينا سنطرد هذا ، فقال الشعب : سنحضر بطيريركنا ، وحينئذ امر ان لا يرسم ذاك وللحال اتى الي قسس آمد ورهبانها والعلمانيين المكرمين ، وخرجت معهم من دير مار برصوم ، لكن اولئك الاشقياء احتلوا ليلا البيعة واغلقوا الابواب ورسموا تايروس المنافق بطيريركا ، في الصباح غيروا اشكالهم وغطوا رؤوسهم وخرجوا من باب المدينة وتوجهوا الى الموصل الى عند المفريان ، فلما سمعت بما صار حزنت على البيعة التي لم يحدث ما حدث فيها الان منذ اجيال ، وقررت ان اعتزل من الخدمة التي ربما لاكون اهلا لها ، فلما عرف المجتمعون بذلك اجهشوا بالبكاء ، وقالوا : ان تركت منصبك فسوف يهدم كل شيء ، فخاف قلبي فقررت ان ادعو الى مجمع وذهبت معهم الى آمد ، فابتهج الحاكم جدا وفرح ووعدنا خيرا ، فاعتزل كل شعب المدينة والبلاد والتحموا واتوا من كل مكان اساقفة وقسس ورهبان وعلمانيون ، حيث توجهنا الى دير مار حنينا، (٥١) لكن اولئك الاشقياء مضوا الى الموصل لكي يظهر ان المفريان متفق معهم ، وخصوصا بعد المشاجرة التي صارت بيني وبينه قبل مدة ، فلما نظروا ان المفريان لم يقبلهم بل اتى الينا مع مطارنة كل ابرشياته ، ثم ان شعب المشرق قد تبرأ منهم اخذوا ينتقلون من مكان الى مكان محتارين ، ولما وصلوا الى مدينة دارا امسكهم زعماء المؤمنين واخبرونا ، وكنا في دير مار حنينا ، حينئذ خرج المفريان واساقفة وجملة رهبان واتوا بهم موثوقين ، حينئذ اقرروا امام المجمع باخطائهم وحرمو افعالهم كتابة .

لكن لما ارتحلنا جميعا لنمضي الى دير مار برصوم ونعقد هناك مجمعا مسكونيا ، عاد فدخل الشيطان بهم وهم في الطريق فكفر

تايروس بالامانة وداس القسم الذي كتبه بيديه على نفسه ، واعطى ذهباً لانا س ذهبوا واتوا بالاكراد ليلاً فاخذهم الاكراد واخفوهم ريثما نرحل ، ولما عرف ذلك المطارنة والمفريان حنقوا على قائلين : لماذا لم تدعنا نربطه ، ثم خرج كل واحد الى ناحية ، فوجدوه متخفياً ، فامسكوا به ثانية وسقناه معنا الى دير مار برصوم ، فاجتمع المطارنة ومعهم شعب كثير ، واقر الجميع ان يخلع لباسه الكهنوتي ، وهكذا صار ، وتمت باقي الامور ، ورجع كل واحد من الاساقفة الى رعيته ، وهكذا حرم المجمع المنافق ابن وهبون الذي مكث عندنا في الدير واعلن ندمه وطلب الغفران ، اما انا فقبلته كما امرني الانجيل والبسسته اسكيم الرهبانية على رجاء التوبة ، واعطيته حاجة من المتاع وقلاية لسكناه ، وقلت ان تبث فان المجمع الذي حرمك سوف يعيد لك اعتبارك ، لكن عليك ان تعلم انك تحت التجربة الان ، وعلى الشرط تركته في دير مار برصوم ، ورجعت الى دير مار حنيننا ، لكنه كعادته كفر بوعدده وتبع الاشرار مثله فهرب ليلاً من اعلى سور الدير بواسطة الحبال ، وذهب الى دمشق مع رفاقه وكتبوا كتاباً باللغة العربية وقدموه الى صلاح الدين ملك مصر ، ووعدوه ان يعطوه ذهباً ان وجه كتاباً يقبل بموجبه هذا بطريرك في كل الاراضي التابعة له ، كذلك طلب ان يصدر السلطان صلاح الدين امراً يقتلني بعد تليفيق كثير من التهم ضدي ، فلما قرىء كتابهم امام السلطان صلاح الدين ، استفسر السلطان عنهم فحضر مسيحيون مؤمنون كانوا يعملون كتاباً عند صلاح الدين ، فشرحوا له الحقيقة ، فما كان منه الا ان طرد المنافق ابن وهبون ، فمضى الى القدس ، واخذ يخرب على اخوتنا الذين تحت حكم الافرنج هناك وخاصة على البار اثنا سيوس مطران القدس ، ولاسيما بعد ان عرض بطريرك الافرنجة الذي هناك عليه ان يعطيه الف دينار ، وياخذ دير مريم المجدلية الذي كان لنا في القدس ، ورفض فكان ان ابتلينا مع البيعة بكثير من التعب والمشقة ، وخاصة رعيتنا التي كانت تسكن القدس ، وقد بقي هذا الظلم والاضطهاد علينا وعلى بيعتنا حتى دخل العرب الى القدس.

وبعد ذلك توجه هذا الى الشرق لانه سسمع بموت مار يوحنا المفريان فزرع سمومه هناك في الموصل وماردين ، وكان يدخل على الأمراء الترك فيعدهم بالذهب ، وبذلك اعتاد الحكام الاتراك ان يطلبوا الذهب من كل رعية ، فقد اوقعنا هذا واوقع اخوتنا جميعا في المشرق في حرج عظيم ، لكن هذا الفاسد هرب من هناك كما هرب من فلسطين واتى الى قلعة الروم الى عند جاثليق الارمن ، ووعده كعاقبة الشريرة اذا ساعدة واقامه بطريركا فانه يجعل كل الشعب يطيعه ، وكان قد قال الكلام نفسه لبطريرك الافرنج في القدس وتوصل بهذه المواعيد الكاذبة الى ان يصير مساعده الى ان اكتشف امره فطرده ، وهكذا صنع بجاثليق الارمن ، فقد صدقه هذا في البداية ، لذلك جابهني بكل الاسلحة التي عنده ، بل ارسل ذهباً كثيراً ، وهدايا عظيمة الى الامراء الاتراك في سورية وبين النهرين ، واخذ يوغر صدورهم ، وكان يهدف من وراء ذلك ان يحرمني ويقيم مكاني ابن وهبون بطريركا على شردمة اليعاقبة لكي تصير تحت إمرة الجاثليق ، كما كان قد وعده وكذلك حاول كثيرا مع الحكام العرب ، لكن الله كان ضده ، ثم خرج الجاثليق من قلعة الروم برفقه ابن وهبون ، ومضيا الى قيليقية الى ليون الارمني حاكم تلك البلاد ، وهناك طلب من الحاكم ان ينصب ابن وهبون بطريركا في بلاده ، ثم اعطى ابن وهبون كتابا من الحاكم ومن الجاثليق ، فخرج هذا يتجول في البلاد ، وكان كل راهب اوقسيس او أسقف لا يقبله او يرفع رئاسته في صلاته يأخذ ماله ويطرده من بيعته ، وقد اذاق المسيحيين عذابا يفوق العذاب والاضطهاد الذي شنه الوثنيون ولم ينج منه حتى رؤساء الكهنة ، والكهنة والرهبان الموجودين في تلك الناحية ، وعندما وصلت الامور الى ذلك المدى ، جمعت مجمعا عاما وطلبت منهم اعفائي من الخدمة ، لكن المطارنة كلهم رفضوا ، واتفقوا ان يذهبوا الى هذا الجاثليق الظالم ويضعوا حدا لتجاوزاته علي ، ثم سيذهبون الى ليون الحاكم ويضعونه بصورة الوضع كله ، ولما رأيت اجماعهم علي قلت : يا اخوتي دعونا نصلي قبل ان نلتجأ الى السلطان لانه مكتوب : « ملعون من يتكل على انسان ويجعل

ابن اللحم نراعه ، بل هلموا نلتجأ الى الله وقديسيه وخاصة مار برصوم ، وابتدأنا بالصلاة والطلبات ، وقد شارك معنا كل من حضر عيد القديس مار برصوم ، ثم طقنا بيمين القديس ، وقلنا : ياربنا يسوع المسيح بصلاة مار برصوم اشفق على بيعتك ، واجعل عجائبك بمن هو سبب خراب وانشقاق هذه البيعة ، ان كنا نحن ام غيرنا ، وفي ذلك اليوم عينه ، وما كانت صلاتنا تنتهي في دير مار برصوم حتى سمعنا ان الجائليق قد سقط عن حصانه في قيليقية ، وانكسرت اصبع رجله فقطعوها ، ثم مات بعد عدة أيام ، ثم إن اثني عشر أسقفاً أرمنياً كانوا اتفقوا مع ابن وهبون ، كل منهم ضرب بنوع من الضربات ، ومات ، وسبعة رهبان سريان كانوا يتبعون ابن وهبون احترقوا بالصاعقة ، وبعد أربعين يوماً تاودورس بن وهبون سقط عليه غضب الله ومات ، وقد صار هذا عبرة عظيمة لكل واحد ، وخصوصاً للشعب الذي في تلك البلاد ، حتى أن ليون الحاكم خاف أيضاً وأرسل نذراً وهدايا لسيدنا مار برصوم ، ولي أيضاً وصار صلح جميل في بيعة الله ، وفي كل مكان ، ولا أدعي لنفسي شيئاً . وإنما الله هو الذي صنع كل شيء باسم مار برصوم ، وكذلك لأجل محبته لشعبه المستقيم .

أخبار البيعة في هذا الزمان

الغضب الذي عم علينا بسبب خطايانا لم ينج منه دير مارمطي في كورة الموصل ونيوى ، وذلك عندما توفي الأتابك قطب الدين ، وتملك ابنه سيف الدين سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) بعد هذا تحمسر نور الدين حاكم حلب وانتصب قائلاً يجب أن اتولى تدبير أبناء أخي ، فغادر حلب وأخذ يخضع البلاد ، ثم حاصر الدير ، ولما علم الأكراد بمحاصرته للدير فرحوا وأخذوا يعيروا المسيحيين ، ثم قرروا أن يخربوا الدير ، وأخذوا يترصدونه في الليل ليسرقوه ، لكن الرهبان كانوا متأهبين لذلك ، وقد كسروا سلالهم مرات كثيرة ، وذبحوا وقتلوا منهم ، حينئذ اجتمعوا وأتوا غاضبين على الدير وهاجموه لكن لما سمع أهل قرى بلاد نينوى اجتمعوا عاجلاً وصعدوا واسعفوا الرهبان ، وكسروا الأكراد ، فاحتال الأكراد وصنعوا صلحاً كذباً مع الرهبان وأعطوهم ثلاثين ديناراً عربون محبة ، وقد صدق الرهبان صلح الأكراد الكاذب ، فصرفوا أهل القرى إلى بيوتهم لكن الأكراد عادوا فاجتمعوا وأتوا ، وكانت هناك صخرة عظيمة في رأس الجبل فزعزعوها ودحرجوها بعنف فضربت السور وأحدثت فيه ثغرة ، فاجتمع الرهبان وأحضروا كلساً وحجراً ليسدوا الموضع ففاجأهم الأكراد وأخذوا يرمونهم ، ثم استلوا سيوفهم وهجموا بصرخة واحدة على الرهبان ، فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم الآخر إلى قلعة الدير العالية فنجا ، وقد قتل في هذه الواقعة متى الراهب ودنحسا الحبيس ، وكان الأكراد ألف وخمسمائة ، ولما استولوا على الدير حملوا على خيلهم كل ما نهبوه لأن الدير كان مخزناً يحفظ فيه كل مقتنى البلد ، وبعد أن مضى الأكراد أخذ الرهبان الكتب وكل ما وجد في القلعة العالية ، ونزلوا إلى الموصل وبقي الدير خالياً من السكان والخدمة ، وكان منظرنا حزينا كئيباً يعيرنا ، وأما أهل البلاد فقد استأجروا جنوداً

ليحرسوا الدير ، لكي لا يهدم الأعداء البنيان ، وكانوا يدفعون لهم في كل شهر ثلاثين ديناراً .

أما حكام الموصل فحين سمعوا بما فعل الأكراد بالدير أرسلوا عسكرياً ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وحينئذ خرج الأكراد وخرّبوا في بلاد الزساطرة خمسة قرى ، وقتلوا سكانها وسبوا البهائم والمقتنيات وأحرقوا البيوت .

في هذه السنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) أسلم حسن الراهب والقسيس ابن كميب في ماردين بسبب الخلاف الذي صار بينه وبين أخوته الرهبان ، وقد أخذ العرب ديّهم المدعو دير الأبركار في جبل ماردين وصنعوه مسجداً للأكراد .

وفي تلك السنة ابتداء المطران ديونسيوس المعلم بتجديد بيعة والدته الرب في آمد ، وأقام بها شماساً اسمه إبراهيم كان وكيله ، وقد جمع هذا صبياناً كي يتعلموا القراءة ، وكان هو يتعلم من المطران ويعلم المتعلمين ، وهو أيضاً جدد أرض البيعة بتبرعات جمعها منه ومن باقي المؤمنين .

وفي تلك السنة بنينا البيعة التي في دير ابي غالب في بلاد البيرة نواحي جرجر .

وفي تلك السنة جمعنا مجمعا في دير مار حنانيا ، وارتسم من الأساقفة اغناطيوس لتل أرسانيوس واوانيسر اسيبيا برك ، وجلب كلاهما من ملطية من دير سرجيسية ومن دير القناة .

بأياها القراء صلوا على الكاتب الضعيف الخاطي

وفي ايلول سنة ١٤٨٢ يونانية طرد جبرائيل الشيخ رئيس دير مار برصوم رفاهه ، وأتى الى عندنا الى دير حنانيا ، فجننا الى الدير لأجله ، وجاء معنا البار ايا ونيس مطران كيسوم ، وكان بحالة صحية سيئة ، وقد توفي يوم السبت ٢٤ تشرين في دير مار

برصوم ، وكان هذا علامة في التعاليم الكهنوتية ومتكلما ماهرا
ومعروفا في البيعة .

وبعد شهر ، أي في تشرين الثاني سنة ١٤٨٢ يونانية تزايد
الحزن على شعبنا ، فقد انتقل من بيعتنا نحن المستقيمين المجد
ديونيسيوس ابن الصليبي مطران آمد ، أي يعقوب المعلم المنطقي
وكوكب عصره هذا الذي يليق له أن يكنى بالمجاهد مثل يعقوب
الرهاوي ، لأنه جاهد كثيرا في التعليم ، وجمع وكتب تواريخ
صحيحة ومعتمدة ، وفسر كل كتب الأنبياء أي كل العهد
القديم ، وصنع أيضا تفسيرا جديدا للإنجيل والرسل والرسائل
والرؤيا ، وكذلك لكتب تعاليم غريغوريوس النوسي وكتب
سويريوس ، وكتاب بطرس القلونيقي وحياتة أبو جريس
المتوحد ، وصنع كتابا في الجدل ضد كل المذاهب والعقائد التي
تخالف إيماننا المستقيم المجد ، وصنع أيضا كتاب تفسير لمنطق
براهين أرسطاطالوس وغيره ، وصنع كتاب منطق
اللاهوت ، وكتابا على الأزمان وكتاب رسائل ، وكتب أيضا ميامر
وجمع وكتب كتابا عظيما تضمن كل الحان بيعتنا، وقد اغنى البيعة
بكل هذه المؤلفات واغنى نفسه بحفظ القوانين المقدسة ، وقد كتبنا
مقالة على كل تدابير ومحاسنه وشرفه كلها تفي بالفرض وتفهم
القارئ مرتبته العالية ، وقد سجي جسده في بيعة والدة الرب في آمد
في الجانب القبلي عند قبر البطريرك ابن عبـدون وابن
شوشن ، ليرحمه الرب ويغفر لكل من يقرأ ويصلي أيضا على
خطيئتي (٥٢)

وفي سنة ١٤٨٣ يونانية في شهر تموز أخذ العرب بيعة مارتوما في
ماردين ، أما السبب فهو ان شخصا اسمه برصوم من ماردين
ضبط يزني مع امرأة مسلمة ، فأمسكوه وعذبوه لكن نجا من
الموت ، فحكم عليه الوالي حسام الدين ان يأخذ أمواله ومقتناه
ويرحل ، وفي هذا الوقت كان المسيحيون يجدون بنيان بيعة مار
برصوم ، فاحتال بعض العرب وقالوا للوالي : ان برصوم هذا قد

بنى بيعة من ماله الخاص وسماها باسمه ، فأصدر الوالي امرا بهدمها فهدموها ثم بنوها مسجدا وقد عم الحزن القوي جميع المسيحيين الذي جاهدوا كثيرا ليخلصوا البيعة من الهدم ، لكن عملهم هذا انعكس عليهم سلبا فتجمهر الشعب واشتكى للوالي وحاول المسيحيون ان يقابلوا الوالي ليزيلوا من امامه اللبس الذي صار ، لكنه رفض استقبالهم ، بل غضب عليهم وكان هو في الأصل ناقما على المسيحيين بسبب حسن بن كميح الذي ذكرناه من قبل . الذي كان راهبا وقسيسا وكان له اخوان من رهبان الافرنج ، فاختلف معهم ، فالتجأ الى المسلمين واعلن اسلامه لكنه مالبت ان هرب الى القدس وعاد فتنصر ، ولما سمع الوالي بذلك أمسك اخوته وجملة من الرهبان غيرهم وقتلهم .

وبهذا الزمان انصب اهتمامنا على كتب دير سيدنا مار برصوم فجددنا الكتب العتيقة بمعونة الله ، وهيأنا ورقا وكتبنا فنقيثين (٥٣) للدير لتذكارة المطران اثناسيوس اي زكي عمي ، والرهبان ايليا ابي الجسداني (٥٤) .

وفي هذه السنة ايضا اصلحنا عين الماء التي للدير ، وفي هذه السنة طرد العرب اسقف الجزيرة ، واخذوا الدير بمكاتيب ليست صحيحة وحبسوه في الموصل ، فمضى اهل رعيته الى بغداد واقتدوا الدير بمبلغ كبير ونجا هو ايضا .

وكان في هذا الزمان مجموعة من ارمن الرها مع قسيس يدعى كرابيت وراهبان يدعيان بروك واوسيج يشتمون جاثليقهم كثيرا ، ويتهمونه بأنه يبيع الكهنوت ، فأمسكهم غاضبا وحلق نقونهم وعند ذلك تزعموا انشقاقا وابتدعوا هرطقة فتبعهم نحو اربعمائة بيت من الأرمن وكانوا يدعون اوسيجونيين فاغتاظ الجاثليق جدا ، وارسل رسلا وهدايا الى الحاكم وطلب منه ان يطرد هم من مدينته فقبل الهدايا منه ، وائن للارمن ان يضايقوهم فتوالت عليهم الضربات، عندئذ قدم الاوسيجونيون هدايا للامير

فأعطاهم أمرا أن يتدبروا كما يريدون ، فتبعوا الخلقيدونيين، وكان الأرمن كلهم وجماعتنا أيضا ييفضونهم ، لكن لما تضايقوا وجدوا رجلا إسكندرانيا كان يعرف اللغة العربية وكان داهية ومتكلما فمضى الى نور الدين واتهم الجاثليق وبطيركنا والرهاويين بتهم شتى ، وقال لقد اتى رسل مع رسائل من ملك اليونان الى الأرمن والسريان ليسلموه الرها ، وعند ذلك سيق المطران اثناسيوس الى حلب ومعه الأرمن وغيرهم من أهل الرها ، لكن لما انفضح الأمر ، ووجد أن الاسكندراني كاذبا طردوه ، فهرب الى بلاده ، ورجع أهل الرها بسلام.

زيارتنا لأمد وموت الجاثليق نرسييس

بعد هذا اتى الينا قسيسان من الأوسيجونيين ، ومعهم راهب من أتباعهم ليشتكوا على الجاثليق ، فاكتشفنا انهم يفهمون كلام اثناسيوس وكيرلوس والأخرين بطريقة خاطئة ، وقالوا ان هذين القديسين قد قالوا : ان للمسيح طبيعتين وفي بعض الأوقات طبيعة واحدة .

فأخذنا نشرح لهم قول القديسين من كتبهما ، وحينئذ تخلوا عن غضبهم على القديسين ورجعوا الى استقامة المجد وكتبنا معهم رسائل الى الجاثليق ليغفر لهم ، ولما مضوا وجدوا نرسييس الجاثليق قد توفي في تلك الأيام ، ثم ان هؤلاء الرهبان اتوا وسكنوا في أديرتنا، أما أوسيج رئيسهم فمضى الى انطاكية وصار خليقيونييا كليا وتبدد الباقي .

وبعد ديونسيوس ارتسم لأمد ابراهيم تلميذه ، لكنه مالبت ان توفي بعد ثلاثة اشهر ، وأما الحاكم فقد أمسك بالقساوسة ليأخذ المائة دينار الذي فرضها عليهم أبو سعد العاصي ، وكتب الينا اذا كنا لن نرسل من يعطيه في كل سنة مائة دينار فسوف يخرب البيع ، وعند ذلك سلمت نفسي للرب ، ومضيت الى هناك ، ولما سمع الحاكم اندهش وأكرمنا كثيرا ، وأدخلنا بترحاب عظيم ، فوجدنا البيع البهية ممنوع الدخول اليها وقلاية (مقر) البطريرك المتوفي قسم منها خرب كليا وقسم حوله الحاكم الى مستودع لقطنه ، وقد تعبنا كثيرا وصرفنا أموالا وأموالا لاصلاحها ، ثم اننا بمعونة الله تعالى اصلحنا ايضا البيعة التي في بير قنقرت (٥٥) وكانت مبنية من اللبن والخشب وشبه مهدمة ، وبقوة الرب اجتهدنا في بنائها بحجر وكلاس.

اما اولاد قربة الذين بالسجن ، وكان يطلب الحاكم منهم الفسي دينار فمتوسطنا لهم فباعنا اياهم بثلاثمائة دينار ، فاطلق سراحهم ، ثم مكثنا هناك كل فصل الشتاء ، ولما انتهت الاعياد ورسم ايليا الذي دعي اياونيس لكيسوم ارتحلنا في الاسبوع الثاني للعيد الى ماردين .

لما توفي نرسيس جاثليق الارمن يوم الخميس في اب كان احد اولاد اخيه راهبا ، والآخر اسقفا ، وعندما توفي لم يكن الكبير حاضرا فاعطى خاتمة للصغير وكرزه جاثليقا ، ثم اتى الاخ الاكبر بسرعة لكن الصغير لم يتركه يدخل فالتجأ الى ختنه مليح حاكم قيليقية الذي قدمه الى نور الدين ، فأتى معه امر من الأتراك فخاف الارمن ان يسلم نور الدين البلدة الى مليح ، فأتى جماعة من الارمن واقتادوا الصغير قسرا الى قلعة الروم ، فربطه ابن عمه ووضع في السجن وارتسم هو جاثليقا ، وكان ذلك يوم الاحد ٢٥ ايلول سنة ١٤٨٤ يونانية ، وهكذا افتضح امر هؤلاء المسيحيين لأن رئاسة كهنتهم لم تكن بحسب الشرائع والنواميس الالهية ، وانما هي كالمالك الطغاة ، واما الجاثليق الجديد المدعو كريكوروس فدعا الى رسامته اثنان من مطارتنا القريبين منه وهم غريغوريوس مطران كيسوم ، وباسيليوس مطران رعبان ، وقام فأرسل لي رسلا ورسائل فيما بعد قال فيها : كنت أرغب وأتمنى أن تحضر وترسمني وتضع يدك على رأسي بدلا من يمين غريغوريوس ، فتبجح الارمن لأنها هي تمنحهم رسامة الكهنوت ، لكننا كنا في عجلة من امرنا لأن الخطر كان يحيطنا من عساكر الترك فأكملنا لذلك الخدمة .

واما انا فأرسلت له جوابا وشفعته بالبركات والصلوات ، لكنني لم انس ان اتطرق الى القوانين الكنسية الرسولية الخاصة القائمة على المحبة ، ونبهته الى الخطيئة العظيمة التي تنشأ من ابتياع الكهنوت ، الأمر الذي هو عند الارمن ناموسي ، ثم اوردت الكلمة التي قالها بطرس العظيم لسيمون الساحر ، فأعجبت جماعة

الأرمن ، وحسنت لهم ، لكنها لدغت رؤساءهم ، ثم توسطت لابن عمه فأخرجه من السجن .

وبهذه السنة كثرت الأمطار في كل مكان وأفسدت الأراضي وصارت سيول جارفة اتلفت أثمار الأشجار والكروم ، لكن بعد هذه الأمطار والسيول زرعوا الحنطة وباقي الحبوب فسأطت غلات عظيمة .

وفي هذا الزمان - سنة ١٤٨٦ - حدث ضدي تمرد كبير ، وهذه المرة من اخوتنا لأنني عندما دعيت لهذه الخدمة جاهرت بالقوانين المقدسة ، وحاولت ان أعيد كل شيء الى نصابه ، وأطبق شريعة الآباء ، واتمسك بالنواميس الكنسية التي تحلوا منها في هذا الزمان ، وخاصة الكهنة الذين لم يعودوا يرسموا كاهنا من اية رتبة كانت الا بالرشوى ، فالفيت هذه العادات الرديئة ، وأمرت انه لايجوز لأحد ان يخطف رعية او بيعة ، ليست له أصلا كذلك لايجوز لأحد ان يحتكم الى الملوك والحكام ، او ينتقل من رعية الى اخرى بغير امر ناموسي .

وعند ذلك قام علي مطران دمشق ، ومطران جيحان ، ومطران طور عبيد ، ثم لحقهم في ثورتهم علي مطران قسالاينقوس ، دنحنا الذي يدعي ايوانيس .

وكانت الرعية تتمرد عليه منذ زمن البطريرك مار اثناسيوس ، وكانوا يتهمونه باتهامات شتى ، وقد حرمه البطريرك المذكور عدة مرات لكي يتقوم ، كذلك أتى الي هؤلاء المؤمنون وشكوه وعرضوا علي نفس ماكانوا يعرضون علي البطريرك السالف ، بل وزيادة ، وقد حاولت ان أعالج الأمر معه بالحسنى ضمن نطاق العلاقة الاخوية الكهنوتية ، وكنت أحضه علي ترك العادات غير الناموسية ، وكان قد أتى الشعب الي مرارا خلال ثماني سنوات ، وفي كل مرة كان يزيد في تعنته ، ثم اجتمع مجمع في دير مارحنينا حيث شهد عدد كبير ضده ، ثم أمر المجمع ان يترك الرعية

ويجلس في الدير الموجود في تخوم ماردين لمدة ثلاث سنوات ، فقبل بهذا القرار امام المجمع ، لكنه مالئث أن داس الناموس ومضى الى جماعة من الذساطرة كانوا رؤساء ومدبرين في بلاد ماردين ، واشتكى علي ، وقد تعبت كثيرا معهم حتى فهموا الحقيقة ، واكتشفوا أعماله، عندئذ طردوه ، فسعى الى الوالي وعرض عليه رشوى كبيرة ان قتلني لكن الرب اشفق علي وعلى بيعته ايضا ، ثم أرسل الوالي جنودا فأخونني الى الموت ، وعندما اوقفوني امامه تكلم معي بكثير من الفظاظة والقساوة والغضب لكن الرب الذي قال للمؤمنين أنه يعطي في تلك الساعة مايتكلمون به ، وهبني أنا الخاطيء وغير المستحق القسدة على الكلام والدفاع ، فثبت الحق ، وعرف الحاكم الحقيقة فطرده ، ولم يكن معي في ذلك الوقت بعد الله سوى الربان أبوخير أرشيد ياقون ماردين ، فليغفر الله له ، لكن الشيطان عاد الى قلبه وعقله وملاه حنقا علي ، فمضى الى ملك الموصل ، وأوغر صدره علي بكلام ووشايات غير صحيحة ، ثم وعده بألف دينار ، حينئذ أرسل جنودا وساقوني الى نصيبين ومضى معي معي مار اثناسيوس مطران الرها ، ومار يوحنا وعدد كبير من الرهبان ، ولما وصلنا الى المعسكر أخونني الى نائب الأمير سيف الدين (رئيس المعسكر) فأخذ يتكلم معي بهدوء قائلا انتم تحت حكمنا الآن بأمر الله ، ولايحق لكم أن ترفضوا امرا ملكيا ، لكن قبل أن تجلد وتهان عليك ان تنفذ أمر الملك غازي الذي صدر من قبل ، فأمر ان يكون هذا المطران راعيا لشعبكم الموجود في كل المدن التي تحت سلطته والواقعة ما بين النهرين : قالينيقوس وحران وسروج وبلاد الخابور رعيه لهذا المطران ، ويجب أن تنفذ هذا وتعود بسلام ، وإلا فستحدث أمور سيئة جدا.

لكن الرب ساعدني وعاضدني فهيات نفسي للموت ، وقلت له بشجاعة : إن كتب الشرائع ثلاثة هي : توراها العبرانيين ، وانجيل المسيحيين ، وقران المسلمين ، فأرجو أن تفحصوا فيها جيدا ، وخاصة في القران فستجدوا ان الله لم يأمر الملوك أن يدبروا

امور الايمان بالسيف ، لأن الايمان يصير طواعيه وليس بالغصب ، ولأجل هذا كل الخلفاء الراشدين ومن اتى بعدهم من الخلفاء المسلمين حافظوا على الشريعة الالهية ، وحفظوها وصنعوا كما يأمر الله

قد يكون قد وقع اضطهاد على المسيحيين خلال بعض الفترات ، لكن احدا لم يتدخل او يتسلط على ايماننا ، ولم يطلب منا تغيير او تعديل شرائعنا ، او قوانيننا الدينية ، والآن انتم اذا كنتم تريدون ان تتدخلوا فيما لم يتدخل فيه الخلفاء قبلكم او تغيروا ما لم يغيره ائمة هذه البلاد منذ فجر الاسلام وحتى اليوم ، فاعلموا انكم سوف تصيرون اعداء ليس لي ، بل لموسى ، وعيسى ومحمد (ص) لانكم بهذا قد نقضتم وابطلتم كتبهم الثلاثة.

اي تكونوا قد ابطلتم اوامر الله ، والادهي من ذلك انكم تريدوا ان تعطوا الحق لمن ليس له وتسوغوا وتدعموا كل مارق على الدين وعلى شعبه ، وهذا هو شعب المدن التي قلت عنها موجود اسألوه اليس هو الذي رفضه ونبذه ، واتى الي شاكيا عليه ، لقد اتى يحتمي بالسيف الملكي لأنه صنع الأثم ، وطرده من قبلنا ولم يعد له حق عندنا.

إن امرك لي أن أعيده الي شعبه الذي لفظه طلب مني أن ادوس وأنقض وأبطل أمر الله ، وإنه لاسهل علي أن يقطع رأسي من أن افعل ذلك ، ثم مدت عنقي طالبا قطعه ، حينئذ قام رئيس العسكر ، ودخل الي خيمه الملك ، وبعد وقت طويل خرج وأمسك بيدي وأدخلني وحدي ، ولم يسمح أن يدخل معي احد لا من المطارنة ولا من الرهبان ، وقد طالت مقابلاتي معه وكنت أناديه بالملك فنبهني ذلك الثاني (رئيس العسكر) : قل الملك سيف الدين ، ثم خاطبني الملك قائلا : ايها البطريرك لقد امرنا أن تطبق ناموسك ، ولن نسمح لاحد أن يعصي عليك ، فصليت وقبلت النعمة وخرجت وأنا أشكر الرب ، ودموعي تنهمر على وجهي ، وعندما اخبرت المطارنة والرهبان ابتهجوا ، أما ذاك المطران المنبوذ فكان واقفا وحيدا ، ثم

هجم يريد أن يقتلني ، وصرخ أمام الجميع قائلاً : يا مسلمين اعلموا ان هذا الشيخ اثير ومضلل ، إنه يسكن تحت حكم العرب وحمايتهم وبالوقت نفسه يستجلب العرب ليجعلهم مسيحيين ، ولدي كتاب بخط يده في هذا الخصوص ، ثم أخرج قرطاسا كنت قد كتبتة منذ زمن لأجل ابن كميح ، وعرضه عليهم ، فلما سمع المسلمون هاجوا وأخذوا حجارة ليرجمونني فهرب رهباننا ، لكن الله تحنن علي ففحصوا القرطاس ، ووجدوه يتكلم عن ابن كميح ، وهياً الباري تعالى في ذلك الوقت عرب من أهل ماردين فشهدوا أن ذاك كان راهبا ، ولم يكن مسلما ، حينئذ اعطاني الملك سيف الدين كتابا ورجعنا بالسلام ، أما هو فمضى الى بغداد ليشتكي علي للخليفة ، ولما سمعت بذلك أرسلت رسائل للمؤمنين الذين يسكنون هناك ، فطردوه فأتى بعد هذا إلينا من انطاكية وطلب الغفران فصلينا عليه وأرسلناه الى جبل الرها بانتظار أن نخصص له مكانا في دير ماربرصوم ، لكنه توفي قبل وصولنا ، ليغفر له الرب امين .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية قتل مطران طور عبدين اغناطيوس ، وقد كان مهتما بجمع الدراهم وكان يسعى لها لتحقيق ذلك بكل الوسائل والحيل ، ولما وبخناه لم يخجل منا بل زاد شرا على شر ، واعتمد على العصاة ليساعده في جمع الذهب ، وذات ليله من ليالي الأحاد ترك كنيسته ومضى الى السلطان ليشي كعادته بالرهبان والقسس والعلمانيين ويرميهم في السجن مختلقا أسبابا وأسبابا ، فالتقى به الاكراد ليلا ، وعزما فاجأوه هرب الذين معه فضربوه وعذبوه ، وأخيرا دقوا اسفينا من الخشب في اسفله وتركوه وهو يحتضر ، وصدف أن راه بعض عابري الطريق ، فلما أخرجوا الاسفين من اسفله نفقت روحه ، وقبل مدة كانوا قد قتلوا في حاج قرياقوص هو ورجال مؤمنين ، ومرزوق القسيس وأخيه برصوما وأولادهم ، فظن الناس أن هذا المطران الشقي هو الذي أرسل العصاة ليقتلوهم ، لكن لما قتل هو أيضا عاد فظن الناس أن أهل اولئك أرسلوا القتل طلبا للثأر ، وأن ذلك لم يحدث صدفة .

وفي هذه السنة تمرد علي الرهبان في دير ماربرصوم ، وسوف أوضح السبب فيما بعد .

وفي ذلك الزمان حدث في البيعة انشقاق بعد موت ماريوحنا البطريك ابن شوشن ، فاجتمع المجمع في دير مار برصوم وقبل أن يقيموا رئيسا طلب الرهبان من الأساقفة استقلالية الدير ، وعدم جعله تابعا للبطريك ، والسبب في ذلك أنه فيما مضى ، عندما كان بعض الملوك يتضايقون من البطاركة كانوا يضعون أثقالا وأعباء ماله على الدير ، وفي بعض الأوقات كان البطاركة يأخذون من خزانة الدير أواني من الفضة ، وفي أوقات أخرى اقترضوا ذهباً لكنهم لم يردوه ، فلما أخذ الرهبان قرار استقلالية الدير موقعا من المطارنه الذين شاركوا بالمجمع ، لم يقبل به البطاركة الذين أتوا فيما بعد ، وقال اثناسيوس ويوحنا الذي بعده واثناسيوس الثاني : إن هذا القرار يجب أن يكون موقعا من بطريك ذلك الزمان لأن المطارنة ليس لهم الحق أن يتخذوا مثل هذا القرار ، لذلك اعتبروا هذا القرار لاغيا وباطلا لأنه سيكون سببا للفتنة ، ومن شأنه أحداث شرخ بين كل بطريك يقوم وبين رهبان الدير ، أما أنا فلاني نشأت وعشت في الدير ، فقد أردت أن أمنح الدير معونة فنثبت قرار استقلاليته والزمنا المطارنة أن يضعوا تواقيعهم ظنا مني أن هذا سوف يبطل الانشقاق والخلاف بين البطاركة الذين يقومون في البيعة وبين الرهبان الذين يستلمون الدير ، لكن الانشقاق زاد وصارت فتنة بالدير وانشق الطرفان الى فريقين متخاصمين .

وعندما بدأ الشغب في الدير أخذنا نعالج الأمور بالمشورة مع الأساقفة والرهبان ، فقام المؤمنون بالتوسط ليرجع المنقسمون الى التوبة ، وأرسل الجميع الي في دير مارحنينا طالبين مني الرجوع للعمل على الصلح وتسوية الخلافات ، فأتيت معهم الى آمد حيث خرج الحاكم واستقبلنا بترحاب وإكرام ، ثم صلينا في البيعة التي بنيناها هناك ، وكان ذلك يوم الأحد في عيد القديسة بربرارة أي يوم الرابع من كانون الأول ، ثم وصلنا الى الدير وكنا بحاله تعب

واعيَاء شديدين ، وبعد أن تكلمنا كلام سجالمة مع المطارنة ومع الجمع الموجود اتفقنا على تسوية كل الخلافات ، وكتبنا ذلك ، وبطل اذشفاق البيعة ، وصار صلح وسلام وخرج كل أهل الدير راضين .

وبهذا الزمان كان يوحنا مطران حمص الرجل الفاضل مستنكفا منذ فتره طويله عن رعاية الشعب لضعفه وشيخوخته ، وكانوا يتوسلون اليه أن لا يترك رعيته التي وهبت له من الله أمور رعايتها ، وكان كلما توسلت اليه رعيته أن يستأنف عمله كان يعود ، لكن سرعان ما كان يغير رأيه ويرجع الى الدير ، وبقي على هذه الحالة مدة عشر سنوات ، ثم اشفقنا عليه أنا وكل الأساقفة الحاضرين ، فرسمنا داوود الراهب من دير مار حنينا لمدينة حمص ، ودعي ديودسيوس .

ولما ارتسم المطران داوود على حمص توفي بعد ذلك فأتى الينا زعماء الرعية طالبين الشيخ مار يوحنا ، فرجع الى الخدمة .

وبهذا الزمان توفي المطران اثناسيوس اي ابي غالب المتوحد ، والذي ارتسم بجيحان ، وقد توفي في ديره في بلاد جرجر المدعو دير ابي غالب .

وفي هذه السنة توفي يوحنا أسقف سميساط في دير مار حنينا ، وكذلك توفي أغناطيوس أيضا مطران جرجر والذي هو رومانوس مطران تل ارسانيوس بمطليه في بيعة أبويه ، وصارت رسامة مار اثناسيوس اي الريان صليبا أخانا في دير مار حنينا في ٩ تشرين الأول يوم الأحد .

في سنة ١٤٩٢ يونانية وقعت فتنة بين السلطان قلعج ارسلان وبين ختته نور الدين ، لأنه كان يضطهد ابنة السلطان بسبب عشقه لزانية شيطانية ، فخرج صلاح الدين حاكم مصر الى نجدة نور الدين ومحاربة السلطان ، فأمر السلطان بهدم سور كيسوم وسببي سكانها ، أما نور الدين فقد اتحد مع صلاح الدين على نهر كوسكو ، وكادت أن تخرب البلاد لولا أن الرب قد أشفق فأرسل

- ٢٢٢٥ -

السلطان رجلا حكيمًا إلى صلاح الدين ، ثم تم الصلح وتوقفت الحرب .

أما السلطان فقد أتى إلى ملطيه وجدد سوريها ، وأما صلاح الدين فقد رجع إلى مصر .

زواج البرنس حاكم انطاكية من احدى الزانيات

في تلك السنة ترك البرنس حاكم انطاكية امراته اليونانية التي تزوجها بحسب الناموس في القسطنطينية ايام الملك منويل وتزوج امرأة زانية ، ولم يابه لقرار بطريك روميه ، اما بطريركهم الذي بانطاكية فقد حرمه وحرم القسيس الذي عقد زواجه على تلك الزانية ، وحرم المدينة كلها لأجله فأبطل قرع النواقيس ، وأوقف تناول القرابين والصلوات على الأموات قبل دفنهم ، أما البرنس فقد غضب وقام بنهب كنائس الأفرنج والأديرة ، وبعد مدة اجتمع القضاة وجملة من النبلاء برئاسه بطريك القدس حيث توسطوا مع بطريركهم فأعاد البرنس كل ماخطفه وثبتوا له تلك المرأة واصطلحوا .

وفي تلك السنة عصى امير حران والرها على حاكم الموصل وعاد فاتفق مع صلاح الدين وبوساطة هذا الاتفاق ملك صلاح الدين على منطقة ما بين النهرين ، واتفق مع نور الدين وأما حاكم الموصل وحكام ماردين وأمد والأرمن فاجتمعوا ليقاوموا المصريين ، لكنهم انهزموا بدون حرب أمام صلاح الدين ، فدخل ملك مصر إلى الموصل ، وحل عليها ، لكنه سرعان ما ترك الموصل ربما لأجل المطر الذي كثر عليهم ، أو بسبب آخر ورجع .

أما حاكم ماردين وحاكم سنجار فقد خضعا للسلطان المصري لكن حاكم أمد رفض ، فتوجه صلاح الدين اليه بعد أن وعد نور الدين أنه سوف يأخذ أمد ويوليه عليها ، ووصل اليها يوم أحد الشعانين فحاصرها ، وبعد عدة أيام استولى على السور الخارجي ، حينئذ سلمها ابن نيسان ذلك المسكين ، وخرج منها بطريقة مثله ، وملك عليها نور الدين حاكم حصن كيفا ، وكان ذلك سنة ١٤٩٣ يونانية.

في تلك السنة مات سيف الدين حاكم الموصل وأتى من بعده أخوه عز الدين وفي سنة ١٤٩٣ يونانية توفي الصالح حاكم حلب ، واعطيت حلب لعز الدين حاكم الموصل الذي ملك بعد أخيه سيف الدين ، لكن ذاك مالبت أن اعطاها لأخيه وأخذ منه سنجار ليعدها عنه.

في السنة ١٤٩٢ يونانية أتى السلطان قلع أرسلان إلى ملطية ، وسأل عني وأرسل لي رسالة محبة وود وأرفقها بهدية كانت عبارة عن عكاز (عصا) الرعاية الخاصة بالكهنوت ، وعشرين ديناراً من الذهب الأحمر ، وقد أدهشت هذه المبادرة الطيبة الجميع ، وفي السنة التالية أتى أيضاً وقبل أن يدخل ملطية سمع بالانشقاق الذي صنعه ابن وهبون تادروس ، فأرسل إلي رسالة ودعاني لمقابلته في ملطية ، ودهشت لأنني رأيت هذا التصرف غريباً عن العادة فخفت للوهلة الأولى أن تكون هذه الدعوة وهذا الأكرام الذي لم نعهده من قبل هو السم في الدسم ، لكنني توكلت على الله وتوجهت إلى ملطية ، ووصلت إلى مشارفها يوم الخميس ٨ تموز عام ١٤٩٣ يونانية (١١٨٢ م) وقت البكور ، وكانت مفاجئتي كبيرة عندما وجدت السلطان قد خرج مع ثلثه من العسكر للقائنا ، وكان وراءه كل أهله بالمدينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلينا رسالة تقول: إن السلطان قد أمر أن يكون دخول البطريرك إلى المدينة بحسب تقاليد المسيحيين أي محاطاً بالصلبان والأنجيل ، أما المؤمنون فقد حملوا المصابيح التي لا تحصى ، ورفعوا الصلبان على الرماح وأخذوا يرتلون ويسبحون بأصوات جميلة مليئة بالفرح والاعتزاز ، ولما واجهني السلطان لم يدعني أترجل عن ظهر مركوبي لأخذ يمينه ، بل عانقني بذراعيه ، ثم بدأت أتكلم معه بواسطة المترجم ، وكان يستمع إلي باهتمام ووجهه باس ، ولما رأيت أنه يجب أن أسمع أطلت الكلام كثيراً وكنت أستشهد دائماً من الكتاب ، ثم مزجت الكلام بالوعظ الديني والحكم ، حتى كادت أن تجري الدموع من عيني فشكرنا الرب العالي ، كذلك كل المسيحيين شكروا ومجدوا حين رأوا

الصليب في موكب ملوك المسلمين ، وهكذا دخلنا البيعة ، وبعد موعظة تعليمية رفعنا أيدينا بالدعاء للحاكم وللشعب ، وبعد ذلك اليوم أرسل السلطان يبشرنا انه قد الغى الخراج الذي كان موضوعا على الدير ، وأعطى امرا ملكيا مكتوبا بذلك ، لذلك أرسل لنا يوم الأحد علبه من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، وفي داخلها عظام القديس بطرس رأس الرسل وبقينا في ملطية شهرا كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا ، وقد صارت نقاشات ومناظرات عن المسيح الهنا وعن الأنبياء والرسل ، ولما ارتحل السلطان من ملطية خرجنا معه بناء على طلبه ، وفي الطريق كان هناك كلام طويل عن الكتاب بيني وبين فيلسوفه كمال الدين وهو رجل فارسي منطقي ، فمدح حكمه السريان ، وفرح السلطان كذلك ، وكل ذلك صار ليس لكوننا مستحقين هذا ، بل لأننا نمثل الشعب ، فقد اراد الله أن يعز هذه الأقلية الصغيره والبيعه التي ضعفت بتناول ابن وهبون ، لكن الله لم يشأ أن يطيل فرحتنا فقد احترق دير سيدنا ماربرصوم ، وكان ذلك يوم السبت ٣٠ تموز سنة ١٤٩٤ يونانية ، أما الحادث فكان بسبب أحد الرهبان فقد نسي هذا الراهب واسمه دنحا ، وكان شيخا كبيرا شمعته مشتعلة ، ومضى للكرم فالتهمت النار كل شيء ، خاصة أن الدير كان من الخشب من سقفه إلى أساساته ، بل كانت الابنية ملتصقة ببعضها بعضا ، وقد حدث هذا عندما كنا في الصلاة فسارعنا عندما سمعنا الصراخ إلى خزانة القديس ، وأخرجنا الصندوق الذي به يمين القديس مار برصوم وعظام القديس بطرس ، وخرجنا تاركين كل شيء للنار التي التهمت بشراهة القلالي وبيوت الجميع ، وبيوت الرهبان والمبتدئين ، وكل ما بها وامتدت إلى الهيكل العتيق وأكلت الكتب وأواني الفضة والنحاس وذاب الحديد من شدتها ، وتحولت الحجارة إلى كلس ، وحتى أبواب الدير الحديدية احترقت وسقطت الأسوار ، ونقول بالاختصار إنه لم ينج شيء أبدا إلا البيعة الجديدة التي بنيت من قريب وبرج الدير العالي ومغارة الفرن والبساب الخارجي المدعو باب جرجر ، أما ماتبقى فقد تحول إلى رماد ويوم

الأحد سقطت إحدى القناطر وقتل بها صبي من بلاد جرجر كان قد أتى على صوت الناجين ، وقد رأينا ثلاث عجائب أولها بأنه لم يتأذى أحد قط من أهل الدير سواء كان من الرهبان أو من المبتدئين ، وكانوا يغامرون ضمن النار لينقذوا شيئاً من مقتنياتهم ، وتشبه هذه العجيبة قصة القديس الذي سأل الله أن ينزل البرد ، فأنزله وأفسد الكروم ، لكن كرم المؤمنين لم يفسد ، والعجيبة الثانية أن قبة الخشب الموضوع بها عظام القديسين كانت داخل الخزانة ، فبقيت ولم تحترق ، وهذه أشبه بأعجوبة الفتية الثلاثة الذين حفظوا في أتون النار بغير ضرر لأن روح الله كانت معهم .

أما الأعجوبة الثالثة فهي احتراق كتب كثيرة لم يكن يقرأها أحد أو حتى يفتحها ، فاحترقت بالنار وكأنها زائدة ، أما الكتب التي كانت تقرأ باستمرار فقد حفظت بالرغم من النار ، وهذه الكتب كانت أناجيل تقرأ على مدار السنة نحن رتبناها ووضعناها ، وقد بقيت سالمة ولم تحترق ، وقد بقينا في البرج نحن الرهبان مدة شهر حتى هدا الغضب ، وحينئذ بدأنا بالبنيان ، وخلال ثلاث سنوات بنينا كامل الدير ، وكان أجمل مما كان ، أما البيعة فقد استغرق بناؤها اثني عشر عاماً ، شكراً للرب الذي أتمها .

بعد أن رجعنا إلى ملطية مضى السلطان قلعج أرسلان إلى بلاد الروم وملك على اثنتين وسبعين قلعة من قلاع اليونانيين وكتب إلي الرسالة التالية :

من قلعج أرسلان العظيم سلطان كيبوكية وسورية وأرمينية .
إلى فلان البطريرك محب مملكتنا ، والداعي لنا بالنجاح الجالس في دير مار برصوم والمطمئن في شرف مملكتنا نعلمه أنه بصلواته وهب الله العظيمة لنا .

لما خرج من فيلادلفيه المجيدة ، وأتى إلينا ابن أكوماك الرومي وأولاده ، وسجد قدام كرسي مملكتنا طاعة لنا أرسلنا معه أربعين

ألفا ، ولما علم الأعداء اجتمعوا بالمدينة الكبيرة الوفا وعشرات الوف وأتوا إلنا وحدثت معركة قتلناهم فيها ، ولن يستطيعوا أن يتعافوا من هذه الضربة لفترة طويلة ، وقد استولى عسكرنا على قلعة بباديف الكبيرة ، ثم أخذوا جميع البلاد حتى ساحل البحر ، وقد خضعت كل هذه المناطق لنا وطبقنا عليها شرائعنا وقوانيننا ، وهذه الأرض لم تكن من قبل للترك لكننا نعلم أن بوساطة صلاتك أعطانا الله تعالى هذا الانتصار ، وإننا نطلب أن تتابع صلاتك لأجل مملكتنا ، عافاك الله (٥٦) .

وبعد هذا كانت تأتيني عدة رسائل من السلطان من وقت لآخر .

أخبار أندرونيقوس اليوناني

في سنة ١٤٩٤ يونانية ملك على اليونانيين أندرونيقوس الذي كان قد طرده منويل ، وكان هذا قد عاد إلى القسطنطينية فتظاهر بالطاعة للصبي ، لكنه مالبت أن رمى امرأة منويل وابنتها وصهرها في البحر ، ثم قتل الفتى الكسي سرا ، وقتل أكثر من ألف من الزعماء حرقا بالنار ، وسمل عيون عدد كبير غيرهم ، بعد أن سبى مقتنياتهم، ثم تزوج هذا الشيخ الذنس قسرا امرأة الصبي الكسي ، وارتكب كثيرا من الفظائع ، ثم طرد الأفرنج من العاصمة لأنهم كانوا يساعدون الصبي الكسي كونه كان ابن أفرنجية ، لكن هؤلاء لما طردوا من بيوتهم أحرقوا أربعة عشر ألف من بيده وقرى بلاد اليونان ونزلوا إلى رومية ، وأحضروا عساكر من الأفرنج ، كذلك أتى ملك صقلية فاستولوا على مدن كثيرة من سورية كانت تحت حكم اليونانيين ، فخربوا وهدموها وأحرقوها وأخلوها من السكان .

في هذا الزمان أتى ثلاثة أخوة إلى السلطان أخذوا عساكر من الترك ومضوا وملكوا على فيلادلفية ، لكن بعد مدة أتى عليهم أندرونيقوس الطاغي فقتل أحدهم ، وهرب الاثنان من وجهه ، لكن أحدهم واسمه ايسوفيوس (اسحاق) أتى وقتل أندرونيقوس .

في نيسان من عام ١٤٩٦ يونانية خرج صلاح الدين من مصر فاجتمع إليه نور الدين وباقي أمراء مابين النهرين ، وحدثت حرب استعملت فيها المنجنيقات وكل أنواع الأسلحة ، لكن الترك لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الأفرنج فهربوا ، وحينئذ توجه الأفرنج لبناء القلعة وتحصينها فاستغل الأتراك انشغال الأفرنج فسبوا السامرة ونواحيها ، وقتلوا العديد ، لكن الأفرنج لحقوا بهم فخلصوا الأسرى .

في عام ١٤٩٦ يونانية اشتد داء الجذام على بلدوين ملك القدس فأعطى الملكة لابن أخته وكان صبيبا اسمه بلدوين أيضا ، ولما تملك هذا توفي الملك المريض بعد سنة .

وفي هذه السنة مضى صلاح الدين أيضا إلى الموصل ولما لم يستطع أن يملكها رجع وحل على ميفارقين ، وبعد حروب كثيرة اشتراها بالذهب وملك عليها ، ثم عاد إلى الموصل ، وبعد مفاوضات كثيرة ووساطات بينهم اتفقوا أن يكون حكام الموصل تحت طاعته مثل حاكم ماردين وحصن كيفا واصطلحوا .

وبعد موت قطب الدين حاكم ماردين مات أيضا نور الدين حاكم حصن كيفا في آمد ، وقد حدث موته فجأة لأنه أخذ من البيعة أعمدة رخامية وأدخلها لداره ، فضربه الله بغضبه ، وملك بعده ابنه قطب الدين الصبي .

أما في ماردين فقد أقاموا صبيبا يدعى حسام الدين واثنان هما من أبناء الجوارى ، فأما أخو الأمير نور الدين المدعو عماد الدين والذي أحدث ضجة بعد موت أخيه أخذ قلعة زياد .

بعد هذا مات أيضا حاكم الأرمن ، أمير شاه أرمن ، وكان شيخا لم يكن من أسرته من يملك بعده فتوجه مسرعا أحد عبيده واسمه بكتمر ليملك ، وبينما كان يعبر أمام جبل ساسون تعرض له ابن أخت جاثليق الأرمن الذي خرج من قلعة الروم ، فأمسك ببكتمر هذا وأقسم له وأعطاه قلاع أبيه بيكين

وبهذا الزمان - ١٤٨٧ - ارتسم مطران لشبختان اسطفانوس وارتسم بسيليوس لكورة جرجر وبسيليوس لقالنقيوس ، ويوم أحد تكريس البيعة احترقت كنيسة مار يوحنا بالرهما ، فقد كانت منذ زمن مهجورة وخالية بغير كهنة يخدمون بها ، وكان الحكام يضعون فيها قطنا ، وقد عشش الحمام في سقوفها العالية ، وفي إحدى الليالي ترك الحراس المكان ، فاشتعل وأحرق الطوابق العليا ثم أتت

النار على كل شيء وحتى الأحجار وقد سقط منها اثنان وثلاثون عمودا من الرخام وأصبحت خرابا .

أما البيع التي خربت أيام العرب فهي : البيعة الكبيرة هذه ، وبيعة الرسل ، وبيعة مار توما ، وبيعة مار ميخائيل ، وبيعة مار توما أي بيعة المنديل ، وبيعة مار جرجيس وبيعة المخلص (أبحر) وبيعة والدة الرب المعلمة ، وبيعتين أيضا لوالده الرب ، وبيعة الأربعين شهيد ، وبيعة أخرى للأربعين شهيد كبيرة ، وبيعة المعترفين التي في باب الساعات ، وبيعة اسطفانوس ، وبيعة تاودوروس التي أمام القلعة .

وفي هذه السنة اصطلح فرينز حاكم أنطاكية مع صلاح الدين وتعاهدا أن لايعودا إلى الحرب ، فاحتال ظلما وأمسك روفين حاكم قيليقية ووضعه بالسجن بعد أن كبله بالحديد ، ودخل الى قيليقية وبقي كل الصيف يقاتل ولم يقدر أن يملك على أي موضع قط ، لأنه قام مكان روفين أخوه لاون وحفظ بلادهم بحكمته فرجع بالخزي أخيرا ، وأخيرا أعطى الأرمن للفرنج ثلاثين ألف دينار والمصيصة وأذنة وأماكن أخرى أيضا ، وخرج روفين من الحبس ، وبعد أن نجا روفين تمرد على فرينز فنهب وأفسد كل بلاد قيليقية .

وفي نيسان سنة ١٤٩٧ يونانية أتينا من دير مار حنينا الى دير مار برصوم وبرحمة الله ونعمه القديس سيدنا مار برصوم رمنا الخراب الذي حل بأساساتها التي كنا قد بنيناها منذ سبع سنوات ، وكنا قد وقعنا في مشاكل كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وقد تعب معنا كثيرون في هذا الترميم .

وفي هذا الزمان أخذ الأمير حاكم الرها بأمر حاكم مصر بلاد شبختان من حاكم ماردين ، فخرج هذا وتحارب مع شعب الرها وانكسر ، وبعد هذا أتى صلاح الدين ليملك على ماردين ، ولما لم يقدر أن يأخذه بالخديعة جعلهم تحت طاعته ، كما كانوا في عبوديتهم .

وبعد هذا ايضا نزل صلاح الدين على الموصل واستولى عليها ، لكنه مرض مرضا صعبا حيث قضى كل فترة الشتاء في الخيام مع عساكره الذين هم ايضا اصابوا بالمرض ، وقد شاع خبر أن صلاح الدين قد توفي ، غير أنه لما تعافى أمسك بحاكم الرها ، لكنه ما لبث أن أعاده واصطلحا .

الصراع بين أندرونيقوس واسحق

في أيلول يوم عيد الصليب سنة ١٤٩٦ يونانية تحفز أندرونيقوس ملك اليونانيين ليقتل ايسيقوس (اسحق) لأنه كان الوحيد الذي بقي من أسرة منويل على قيد الحياة بعد فتكه بكل سلالته ، فعلم ايسيقوس بذلك فلبس درعه وامتشق سيفه وتحصن ببيته ، فارسل أندرونيقوس رئيس جيشه ليأتي به فلما نظره أتيا بحنق ، وعلم أنه سيموت لامحالة تشجع واستل سيفه وضرب رئيس الجيش فقتله ، ثم ركب فرسه سريعا وهرب للبيعة الكبيرة وسيفه بيده مخضبا بالدم ، وكان يصرخ ويولول ، فاجتمع عشرات الألوف من الناس ، ولما وصل الى البيعة سلم كل الرؤساء الذين كانوا يشكون بالماناق وينبنون فعلته الشنيعة التي قتل فيها كل سلالة منويل سلموا أن يصير ملكا لهم ايسيقوس سليل الملوك ، وألزموا بطريركهم أن يرسمه ، ولما فعلوا ذلك في البيعة سمع أندرونيقوس فخرج من الأبواب ليهرب الى البحر فلحقوه في السفينة وأرجعوه وقطعوا جسمه بالسكاكين وهو حي ، ثم وزعوا لحمه من واحد الى واحد ، وأخيرا جمعوا لحمه وأحرقوه وسط الحشود .

وبهذا الزمان توفي اغناطيوس مطران القدس ، وقد تولى هذا رئاسة الكهنوت فيها مدة خمس وأربعين سنة ، وفي تشرين الثاني سنة ١٤٩٦ يونانية أرسل المطران اثناسيوس أخي مطرانا على القدس ، وقد قام عليه رهبانها بالاتفاق مع المطران تداروس ، بن وهبون (اريوس الثاني) وبقي يجاهد ضدهم حتى هلك ابن وهبون .

وفرغ بهذا الزمان - ١٤٩٦ يونانية - كريكور جاثليق الأرمن فرحا كبيرا جدا بدافع الحسد والشماتة لما سمع تفاصيل أخبار احتراق دير مار برصوم ، وأخذ يشيع أن القديس مار برصوم قد

طار من الدير وأتى إليه معتقدا أنه بمثل هذا الهذيان يشهر نفسه ، لكن الله مالئ أن انتقم منه لأنه حالما خرج من قلعة الروم ليمضي الى طرسوس تمرد عليه ابن اخته شاهنشاه ، واتفق مع الترك وحاول أن يعطيهم القلعة ، لكن الجاثليق لما سمع قفل راجعا بسرعة وجمع بعض الجنود ، وهاجم القلعة وقد وقع العديد من القتلى من رجال الجاثليق ورجع يجر أنيال الخيبة والاختفاق الى دير توبش عند كيسوم ، واعترف أمام الجمع أن مار برصوم أبه ، ثم عاد ووعد أمام البار واوانيس مطران كيسوم بالتوبة ، أما ابن اخته فقد تشرد وأخذ يتجول من مكان الى آخر وأخيرا أقسم على الطاعة ، فأتى الى الجاثليق وأعلن ولاءه فاصطلحا .

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

الاصحاح الرابع حول الزمان الذي تنبأ به المنجمون بأنه سيصير طوفان مثل طوفان نوح لكنهم كذبوا ، وحول باقي أنواع الأحداث التي وقعت بهذا الزمان والله المستعان .

في ١٤ أيلول في سنة ١٤٩٧ يونانية وقع أمر يستحق أن يحفظ بذاكرة الاجيال ، فقد اجتمع في ايلول سبعة كواكب سيارة كلها في برج الميزان ، وهذه الكواكب هي الشمس ، والقمر ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ وعطارد ، والزهرة ، وكان قد قال المنجمون أنه لم تجتمع سبعة كواكب في برج الحوت الا وصار طوفان كالطوفان الذي حدث ايام نوح ، أما وقد اجتمعوا في برج الميزان فقد تنبأوا أنه ستحدث ربح صرصر تهلك الناس والبهائم والطير ، وقد قال بهذه النبوءة الكاتبة ألوف من الناس وربما اكثر ، وقد ذاع هذا الخبر بالشرق ومصر والهند ، وقد كتب لي المؤمنون من سجستان طالبين الصلاة لأجل نجاتهم ، وقد اعتقد بهذا اليهود والمسلمون والحنفاء الصابئة وعدد كبير من المسيحيين ، كذلك قالوا : ان الشمس ستكسف في هذا اليوم ، وسوف ترتج الأرض ويظهر كوكبان مذنبان ، وقد صدق العديد من الملوك والرؤساء هذه الادعاءات فخرزوا القسوت والمشرب ، كذلك هاجرت أعداد كبيرة الى بلاد أخرى وسكنت أعداد أخرى كبيرة بالمغاور والشقوق للصلاة والصيام ، أما الحنفاء واليهود والمشتغلون بالتنجيم وقراءة الابراج فكانوا يسخرون من المسيحيين عندما كانوا ينظرون اليهم يصلون ، وكانوا يجلفون قائلين حتى الله لا يستطيع أن يغير أو يبطل هذا الامر الذي سيصير ، أما الذين كانوا يأتون إلي مستفسرين فكانت

اجيبهم « لاتسقط شعرة من رأسك الا بأذن ابيك الذي في السماء ، كما هو مكتوب ، وإن المنجمين يكذبون حتى لو كانوا يقرأون في الكتب » وكان بعض الناس يقول لي : ان المنجمين يستقرون الطبيعة ؟ فقلت : اذا كان طوفان نوح قد حدث عند اجتماع الكواكب في برج الحوت كما يدعي المنجمون ، فلماذا لم يعرف ذلك عبدة الكواكب في ذلك الزمان ، ولماذا لم يعرف سوى نوح وحده فقط ؟ لكن الناس كانوا يعيشون بشكل عام في حالة هلع وخوف ، وعندما بنا اليوم الذي كان قد حدده المنجمون أخذ الناس منذ الليل يركضون الى المغاور للاختباء ، وصارت البلد في حالة من الهيجان كأنها وكر من النمل قد هدم ، لكن ماكاد الصباح يأتي حتى أشرقت الشمس وكانت دافئة جميلة ممتعة ، ثم أتى النسيم العليل وكانت الطبيعة تبدو في ذلك اليوم خاصة جميلة وبهية جدا ، وللحال مجد الناس الله تعالى ، أما الملوك فقد احتقروا المنجمين وطربوهم من مجالسهم .

الصراع بين التركمان والأكراد وحوادث أخرى

وفي سنة ١٤٩٦ يونانية أبتدأت الصرب بين شعبي التركمان والأكراد وبقيت ثمان سنوات يتقاتلون فيها ويقتتلوا في أرمينية وفي اثور وبين النهرين وفي سورية وكتبوكية .

أما سبب بدء هذا القتال فهو : كان التركمان يسكنون الخيام ، وفي الشتاء كانوا ينزلون الى البلاد الواقعة قبلي سورية حيث لاينزل ثلج ، ولايصير جليد ، وكذلك يوجد مرعى ، وكانوا في زمان الربيع يصعدون ثانيا الى ناحية الشمال حتى يوجد مرعى للوابهم ، وفي صعودهم ونزولهم كانت تمتلىء الطرقات بهم ، وهم يحملون مقتنياتهم ، وكان الأكراد يمتنون السرقة في كل مكان ، فأخذوا يسرقون أغنامهم وقطعانهم وبقرهم وجمالهم ، وفي بعض الاوقات كانوا يقتلون بشرا منهم ، حينئذ ابتدأ التركمان يجمعون قطعانهم عند ترحالهم ، وحدث أن أمسك التركمان في بلاد شبختان عند حدود ماردين مائتين من اللصوص الأكراد كانوا كامنين للسرقة ، فقتلوهم كلهم ، حينئذ اجتمع عشرة آلاف كردي ، واجتمع اكثر منهم من التركمان واشتبكوا في حرب طاحنة قتل فيها نحو عشرة الاف من الجانبين ، لكن الصرب عادت فاشتعلت على شكل أقوى عندما اجتمع ثلاثون الفا من الأكراد من بلاد نصيبين وطور عبيد ، واجتمع بالمقابل التركمان من بلاد الخابور ، لكن الأكراد سرعان ما انكسروا وامتد قتلهم من شاطيء نهر الخابور الى نصيبين .

بعد هذا عاد فاشتبك الأكراد مع التركمان في بلاد الموصل مرتان فانكسر الأكراد ، وهربوا من أمام التركمان ، ودخلوا الجبال عند حدود قيليقية ووصلوا الى حدود الأرمن ، وهناك أخذوا يختبئون بين بهائمهم ، لكن التركمان أتوا عليهم وقتلوهم كلهم رجالا وذساء

وأطفالا ، وأخذوا أموالهم ، وأبادوا الأكراد من كل سورية وبين
النهرين ، لأن التركمان كانوا يبحثون جماعات جماعات في البقاع
والجبال ، وحيث ما وجدوا الأكراد كانوا يقتلونهم بغير رحمة وبلا
سبب .

وفي السنين الأولى لم يكونوا يؤنون المسيحيين ، لكن أخيرا بدأ
التركمان يقتلون المسيحيين لسببين : أولهما أن الأكراد عندما كانوا
يهربون كانوا يخفون أموالهم في قرى المسيحيين فاكشف التركمان
ذلك .

ثانيا لما كان الأكراد ينهبون قوافل التركمان لم يمنعهم الحكام
الأرمن ، لذلك هاجموا شعوب أرمينية الكبيرة ، وسبوا
الأرمن ، وأخذوا ستة وعشرين ألفا منهم وباعوهم
عبدا ، واحرقوا القرى ودير كرابيد الكبير ، وقتلوا كل الرهبان
الموجودين به ، ونهبوا الكتب وكل مقتنياته .

وفي هذا الزمان أخذوا حربا قلعة تل عرب (٥٧) في بلاد شبختان
واستعبدوا شعبها وباعوه .

وفي هذا الزمان قتلوا في تل بسما (٥٨) مائة وسبعين رجلا
سريانيا ، كذلك قتل عدد كبير من الشباب ، ولما رأى الحكام أن
بلادهم قد خربت وأن القرى قد هجرت بدأ كل واحد يحارب
التركمان في بلده ، فعم القتال كل بلاد كبدوكية وملطية .

وفي هذا الزمان دخل التركمان الى بلاد قلوذية ، فقاتلهم الحاكم
وقتل في قرية أمرون في البلاد نحو مائتين صبي ، وان اللسان
لايستطيع ان يصف ما صار في تلك السنوات الثماني ، اذ من شرارة
صغيرة عم الخراب والقتل في كل مكان .

في هذه الأيام كان في قبرص جزيرة اليونانيين حاكم يوناني اسمه
قومنه تمرد على ملك القسطنطينية وجمع أساقفة اليونانيين وأمرهم

ان يرسموا لهم بطيريكاً ، فصنعوا كما أمرهم ، ثم قام هذا البطيريك فنصب قومنه هذا ملكاً ، وكانوا ينادون به في قبرص ملكاً ، وصار هو والبطيريك أصدقاء للذين في القسطنطينية الى فترة خروج الافرنج من رومية حيث اتى ملك انجلترا وتملك على قبرص وحبس به بقلعة قرب انطاكية ، اما البطيريك الذي نصبه في قبرص فقد مات وانتهت عقيدتهم الباطلة ، وبعد هذا اعطى ملك انجلترا جزيرة قبرص للرهبان الداوية ، لكن لما ارتحل الملك الفرنجي عاد اليونانيون الى الظهور فاجتمعوا بعشرات الالوف على الحامية الافرنجية التي بقيت في قبرص ، وحاولوا أن يقتلوا الافرنج ويملكوا مكانهم ، ولما اشتعلت الحرب هزم اليونانيون ، لكن الافرنج بعد هذه الحادثة اقاموا في قبرص ملكاً ، وكان هذا من قبل ملكاً للقدس .

في سنة ١٤٩٨ يونانية يوم الجمعة ٤ ايلول خسفت الشمس لمدة ثماني ساعات ، وظهرت الكواكب في السماء .

في سنة ١٤٩٨ يونانية اتى إليّ مار يوحنا المفيريان ، وطلب أن يترك الرعاية فرفضت طلبه ، لكنه ترك رعيته ومضى لدير مار يعقوب في جبل الرها ، ثم ما لبث أن ندم وعاد إليّ فأخذ مني تفويضاً وعاد إلى رعيته ، وكان ذات ليلة ينام على سطح البيعة فوقع ومات وبفن في نير مار متى ، ثم كتب إليّ أهل تكريت لأرسم لهم رئيساً للأساقفة وأعلموني أن عندهم رجل لا يحبونه يكنى ابن تمسح يقاتل ليأخذ هذا المنصب ، ويؤيده أناس فاسدون مثله ، وطلبوا منا ألا نقبل قط ابن تمسح صاحب الأفعال النجسة المنتنة ، ثم ارتسم الربان يعقوب ابن أخي ، وابني الروحاني بطريفة ناموسية ، وكان ذلك في نير مار نيمييط بنواحي ماردين ، يوم الأحد أول دخول الصوم سنة ١٥٠٠ يونانية ، وسمي غريغوريوس رئيس أساقفة المشرق .

في هذا الزمان توفي مار مرقس بطيريك الاسكندرية ومصر ، وقد خدم البطركية ثلاثاً وعشرون سنة ، وكان ذلك في كانون الثاني وارتسم مكانه البابا مار ابواينس .